عبده وازن

حديقة الحواس

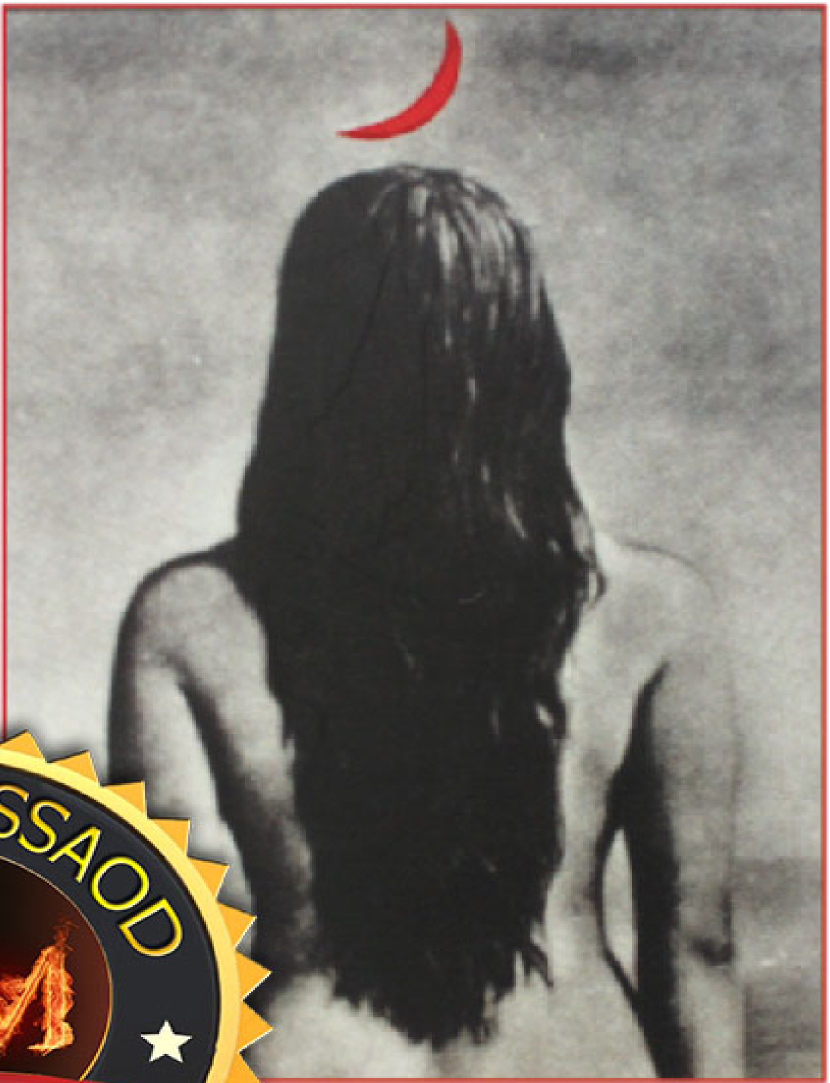

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

دار الجديد

حديقة الحواس
تأليف: عبده وازن

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

أدرك أنّني وحدي الآن: لا شيءَ يوقظ فـيّ الرغبة التي ماتت. صامتٌ لكنّ عينيّ مفتوحتان، أرقب بـهدوء عاديّ ما يرتسم أمامي على النافذة وربّما أبعدَ قليلًا، على مساحةٍ غير محدَّدة من الزرقة التي تغيم أمامي. لا أسمع إلاّ القليل القليل ممّا يتناهى إلـيّ. صمت مطبقٌ، صمت يـجعل منظر البحر رتيبًا خلوًا من الأحاسيس التي يثيرها فـيّ عادة حين أستسلـم لـهدوئه. ربما فقدت حواسّي. ربّما مات فـيّ كلّ شيء. لا أرى بوضوح تامّ وقليلًا ما آبـه لـما أراه. فـي أحيان يـخيّل إلـيّ أنّني لـم أعد أبصر، رغم أن عينيّ مفتوحتان كعادتـهما. يصبح الـمنظر أمامي مرآة خاوية لا تعكس إلاّ بياضها. فـي أحيانٍ أشعر أنّني لـم أعد أرغب فـي النهوض عن الكرسيّ الذي أجلس عليـه سحابةً من النهار والليل ولا عن الطاولة التي أنحني عليـها. أحدّق طويلًا فـي زاوية ما ثمّ أسمع فجأة أصواتًا غريبة تتناهى إلـيّ من مكان ما، فأظنّ حين يعروني الخوف أنّـها أصوات منسيّة فـي ذاكرتي لأناس لا أعرفهم، لأناس ربّما لـم ألتقِهم يومًا. ولا ألبث أن أرفع عينيّ عن الورقة البيضاء، عن البياض الذي يذكّرني بموت مُتُّهُ، بموت لـم أمُتْهُ، أتراخى قليلًا على الكرسيّ، أنظر إلى النافذة وعبر النافذة أحدّق فـي الزرقة، أدرك أنّني لـم أعدْ أحسّ جسدي: كأنّني غبت عنه، كأنّـه غاب عنّي فجأة. فلا الـيدان يداي ولا العينان عيناي وتلك الذاكرة الـميْتة لـم تعد تذكر شيئًا. أطياف وخيالات باهتة تجتازني، تختلط فـي عينيّ ولا أدركها. وجوه تستيقظ من سبات عميق، وتـهبّ من ماض مجهول، أضواء تتناثر هنا وهناك فـي عتـمة تحيط بي، فـي عتـمة تشبـهني. هي عزلتي التي اخترتـها قصدًا حين شعرت أنّني لـم أعد أرغب فـي شيء وأنّني فقدت كلّ شيء. كانت قد انكسرت أمام عينيّ صورة العالـم وما عدت أدرك ما يـحدث. فقدت القدرة على التـمييز بين الظلـمة والظلـمة منذ أن أصبحت نهاراتي قاتـمة، شديدة القتام. ورحت ألتـمس أنّ العالـم يضيق وأنّني أضيق بدوري. كان كثيرًا ما يؤلـمني ضوضاءُ العالـم. يـخترقني ويجعلني خاويًا كصَدَفة. كان أكثر ما يوجعني انتظاري الطويل الذي لـم يكن مجديًا يومًا. سئمت كلّ شيء، كرهت كلّ شيء. لـم يعد يثيرني شيء. ماتت فـيّ كلّ رغبة. غادرني جسدي، غادرتـه، غرقت فـي وحدتـه القاتـمة. الآن أدرك أنّني لـم أعد قادرًا على مغادرة الغرفة، على جواز العتبة. لـم أعد قادرًا على رؤية أحد. صرت ألـيف وحدتي، ألـيف الغرفة والجدران البيضاء، ألـيف النافذة أقف حيالـها أوقاتًا، لا أبصر شيئًا محدّدًا. كانت النافذة علاقتي الوحيدة بالعالـم، ألقي عليـه من خلالـها نظرة مجبولة بالحنين وما يفوقه حزنًا واكتئابًا. فالذكريات تـهبّ، سرعان ما تـهبّ من الأعماق فـي حين ظننت أنّني نسيت كلّ شيء. ذكريات قليلة وباهتة لكنْ ألـيمة. تخالجني فـي أوقات كثيرة وتعتـمل فـيّ فلا يمحوها إلاّ استسلامي للخدر الناعم الذي تثيره الورقة البيضاء أمامي، للخدر الذي يشوبـه البرود والخوف والقلق الذي لا لون لـه. ولـم أمضِ فـي الاعتزال إلاّ لأنّـه كان اختياري الأخير، أملـي الأخير. كنت سئمت كثيرًا وشعرت أنّني بتّ غريبًا تـمام الغربة فـي عالـم لـم يعد لـي، فـي عالـم يتضاءل أمام عينيّ، فـي عالـم قاتـم تتآكلـه الوحشة. تركت كلّ شيء، قلت لن أخرج، لن أغادر عالـمي الصغير. كنت قد سئمت، سئمت كلّ ما من حولـي ولـم أعد قادرًا على كنه العالـم. لـم أعد قادرًا على أن أطمئنّ إلـيـه. شعرت أنّني خسرت كلّ شيء فيما لـم أخسر شيئًا. قلت أجعل من النافذة علاقتي الوحيدة بالخارج، ومن الورقة البيضاء أمامي علاقتي الوحيدة بالزمن الرتيب الذي ينبض فـي داخلـي ويَخِزُني وخزَ الشوك. كنت مدركًا أنّني أصبحت بلا ماضٍ لـيس لأنّ الـماضي غاب عنّي سهوًا بل لأنّني فقدتـه، فقدتـه بنفسي.

أعرف أنّني وحدي الآن. الغرفة هي نفسها والجدران نفسها والنافذة كذلك. السرير البارد بملاءته البيضاء يبعث فيّ قلقًا عميقًا كلّما حاولت أن أستسلم لغموضه، كلّما تمدّدت وحاولت أن أغفو. كنت في الليل أنثني على نفسي لأواجه الخوف الذي يعتريني، لأقتل البرود البطيء الذي يتسلّل إليّ وأمحق الإحساس الخانق بالوحدة، بالعجز، بالركود الداخلي. ولم يكن يغفو فيّ شيء. أمضي الليل أرقب الظلمة، أسمع أصواتًا غامضة. كان ضوء القمر ينسلّ من النافذة إلى السرير، ويعلو قليلًا إلى الجدار. على الجدار كانت ترتسم ظلال غريبة لأشياء غائبة، لأشياء أتخيّلها، تحضر أو لا تحضر. كنت أنهض في أحيان من السرير وأقف أمام النافذة في الضوء الفضّي الذي يرسله قمر لم يكتمل. حينذاك، أمام النافذة كانت تتناهى إليّ أصوات خافتة لم أكن أحاول التمييز بينها. وحين يخفت حفيف الموج يحلّ خواء ما فأشعر أنّني ما عدت قادرًا على السمع، أشعر أنّ الأصوات نفسها تبخّرت في ضوء القمر وباتت نثراتٍ منه. حين أرتعد خوفًا وصمتًا أرجع إلى السرير مستسلمًا لأحلام أصبحت رتيبة، لأحلام شاحبة ومؤلمة. كنت فقدت آنذاك القدرة على استدعاء الأحلام التي خالجتني كثيرًا في ما مضى بألوانها الغريبة وأجزائها المتناثرة. كانت مخيّلتي اضمحلّت ولم تعد مهيّأة لاستحضار الأوهام التي تمرّغت في عتمتها طويلًا. كذلك جسدي اضمحلّ ولم تعد تثيره الأحاسيس الغامضة الرهيفة التي تهبّ من الداخل، ولا الرغبات الخافية التي انطفأت. مات فيّ كلّ شيء ولم يبق حيًّا سواي. أتمدّد على السرير وحيدًا كالظلّ الذي فقد جسده. كانت هواجسي الليليّة تجذبني كالهاوية وتجعلني كالفريسة أتأمّل نفسي في نهبة الخوف فيما أغرق بهدوء في رطوبة التلذّذ الغامض، في نداوة الاعتزال الشديد. كنت أستسلم لعتمة الجسد، أتخدّر وأغفو. غير أنّ رغبتي لم تكتمل يومًا. ظلّت غامضة كهاوية يلذّ لي السقوط فيها. هكذا وجدت نفسي بلا أحلام بلا رغبات، ممدّدًا وحدي على سرير بارد، لا تغمض لي عين. حين أملّ التمدّد كنت أتجمّع على نفسي لأنهض إلى النافذة

حينًا وإلى المرآة حينًا. أضحت المساحة هذه عالمي الوحيد بعد أن هجرت العالم. عيناي مفتوحتان، جسدي مرهق، يداي ترتجفان رجفًا داخليًّا. مرأى القمر يوقظ فيّ حنينًا قديمًا إلى ماضٍ ألفته سابقًا ونسيته الآن. ضوؤه يريحني ويذكي فيّ رهبة غامضة، يذكي في جسدي دفئًا غريبًا. كان مرأى القمر من النافذة يختلف تمامًا عن مرآهُ في عرائه، في سمائه. حين يدخل الغرفة ينثر صمته الفضيّ وظلاله ويصبح طيفًا من أطياف الغرفة. حين أملّ الوقوف أمام النافذة كنت أرجع إلى المرآة التي اعتدت الوقوف أمامها طويلًا. كنت كلّما رأيت وجهي في المرآة أشعر أنّ شخصًا آخر يحدّق فيّ ويؤنسني. غير أنّني كنت في أحيان أُطيل التأمّل في وجهي حتّى تأخذني الرعدة فأخاف وأرتجف. فاللّيل يُضفي على المرآة رهبة خاصّة ويزيدها الصمت التامّ حدّة. أمّا الخوف الذي يثيره وجهي في المرآة فلم يكن يبدّده سوى الحنين إلى مرأى وجه ما. كان يخيّل إليّ أنّ وجهي لم يعد وجهي، أنّه أصبح وجهًا آخر، وجهًا لشخص آخر لا أعرفه، أكلّمه بصمت وأحدّق فيه. كان وجهي ما برح ذاك السرّ الذي لم أستطع أن أدركه يومًا. كنت في قراراتي مأخوذًا بالوجه منذ زمن بعيد، أرى فيه نورًا خافيًا لم يكن يلمحه سواي، ينبثق من العينين الخفيضتين اللتين لا ترنوان مقدار ما تحدّقان في جهة، غالبًا ما فاتني أن أحدّدها. لكنّني حين أحدّدها، كنتُ أغيبُ في وجهي في المرآة، لم أكن أميّز حركة عينيّ ولا أعي إن كانت العينان تتحرّكان حقًّا أو تثبتان في ناحية واحدة. لم أكن أفتعل ذلك، كنت هادئًا جدًّا ومن شدّة

عزلتي كدت أنسى نفسي، كدت أنسى من أكون وماذا أفعل هنا. كنت أدرك فقط أنّني مبعثر كأفكاري بين مرآة ونافذة وطاولة تعلوها أوراق بيضاء. أمّا السرير فكان يؤلمني حين أنظر إليه طويلًا لأرى طيف امرأة غادرت، طيف امرأة تغادر دومًا. كنت أحاول بهدوء كُنْهَ السرّ الذي يؤرقني ويدفعني إلى أوراقي، إلى النافذة حينًا وإلى المرآة حينًا.
السريرُ نفسُه لكنْ خالٍ، باردٌ. المرآةُ نفسُها لكنْ مطفأة، الليل نفسه أيضًا لكنْ على قتام شديد. حين غادَرَتْ تركتْ وراءها كلّ شيء. نظرتْ إلى الأمام وغادرتْ، لم تنظر إلى الوراء. فتحتِ الباب ورحلتْ صامتة تمامًا كما جاءت صامتة. كانت عاجزة عن احتمال وحشتِنا والوقتِ البطيء الذي غاب من شدّة ما توحّدنا به. كانت هي علاقتي الأخيرة بالحياة، بما اعتدت أن أسمّيه الحياة. حين رحلتْ لم تغلقِ البابَ وراءها. دخل الضوءُ ومسّ عينيّ. لم أكن غافٍ آنذاك. أبصرتها تتسلّ بهدوء، ترحل في الفجر، تغيب في ضوئه الكامد. كانت تدرك إلى أين تذهب فيما لم أدرك إلى أين ذهبَتْ. لم أسألها يومًا إن كانت ستغادر ولا إلى أين. لكنّني ارتقبت رحيلها بين يوم وآخر، رحيلها المفاجيء. كانت سئمتْ هي أيضًا ولم تحتمل مرأى الهاوية التي شرعتْ تنبثق أمامنا. كنّا اقتربنا من الهاوية كثيرًا وغدونا كظلّين منكسرين على حافّة غيابنا. لكن لم تحتمل. لم نحتمل كلانا ولم نستطع أن نمضيَ في إنهاء حياتنا، الضئيلةِ حياتنا. ظلّت تخاف. ظلّت ترتجف في السرّ. أما أنا فكنت لأمضي في ما لم أمضِ به، ما لم أجرؤ على المضيّ به. لم أكن لأتردّد لولا رحيلها الذي فاجأني ولم يفاجئني. كنّا اخترنا الأمر معًا، إخترناه صدفةً في لحظة سحيقة من سأمنا. حين غابتْ أدركتُ معنى حضورها. وجعلتُ أسترجع جسدها جزءًا جزءًا والأحاسيس الغامضة التي خالجتها طويلًا. كان عليّ أن أقرّر وحدي. لكنْ لا أدري لماذا تراجعت. كنتُ ما زلتُ غريبًا عن نفسي واجمًا ومرتاعًا. كانت ما زالت وحدتي شديدةً وكابية. لكنّني لم أفعلْ. قلتُ أواجه نفسي بنفسي خارج العالم داخل العالم، في الغرفة التي تطلّ على زرقة البحر والسماء. كان المجهول وما برح يخيفني خصوصًا حين أكون وحدي. كان على جسدينا أنْ يلتصقا وألاّ ينفصلا، كانا أصبحا آنذاك جسدًا واحدًا، جسدًا في مرآة. كنّا تشابهنا حتى امّحينا بعضنا في بعض، حتّى غاب وجهي في وجهها وصمتي في صمتها. كنّا ذكرًا وأنثى، أصبحنا ذكرًا وأنثى في موتٍ واحد، ضوءٍ واحد.
هكذا أضحتِ المرآةُ هاجسي اليومي إثر غيابها. حين أحدّق في المرآة أسترجع وجهها والغموض الذي عراه. ظلَّ وجهها يسكن وجهي وعيناها عينيّ. في أحيان كنتُ أبصر بعينيها وأصمتُ صمتها وأحسّ ما كانت تحسّه في السرّ. وحين ألمسُ جسدي أشعر أنّني ألمسها. صرنا كائنًا واحدًا. ألغت غربتنا الشديدة كلّ اختلافٍ بيننا فرحنا نتشابه ونتشابه ونقع في خواء تشابهنا. لكن حين رحلت تركت الباب مفتوحًا وراءها. دخل الضوء، لمس وجهي ولم أنهض. ظللت مستسلمًا لخدري الغريب. وجعلت أتأمّل: هل استطاعت أن ترجع إلى العالم حقًّا؟ ولماذا دعتني بصمت إلى الخروج، إلى اللحاق بها نحو العالم الذي رفضناه كلانا؟ كنّا قرّرنا أنْ يكون هذا النهار نهارنا الأخير. العتمة التي غمرتنا قاتمة والضوء غائبًا وجسدانا غائبين. كانت نظراتنا تتّجه إلى أفق مجهول تلتقي فيه ولا تأسره. كنّا نوجّه أنظارنا إلى نقطة خافية نراها ولا نفقه سرّها. تمّحي عيوننا عندها كما لو أنّ ضوءًا يغشى عيوننا. في حالاتِ الغبش تلك كانت تتبدّل ألوانُ العالم وروائحُه. يصبح للضوء رائحةٌ وللّون صدى لا ينتهي. كنّا قرّرنا أن يكون هذا النهارُ نهارَنا الأخير. لكنّها نهضت قبل يُنوع النهارِ ورحلت. لم تغلقِ البابَ وراءها.

وحدي الآن أمام أوراقي وأوراقي بيضَاءُ باردةٌ. دفءُ الصيفِ لا يُشعل فيَّ حنينًا. أفكار كثيرة تحاصرني. أفكار تَخِزُني كالشوك. لا أعرف متى يبدأ النهار ولا متى ينتهي، كأنّني أصبحت كائنًا آخر، كائنًا عقيمًا ضامرًا. الوقت يمضي أمام عينيّ ولا يمضي. لا أشعر به. حدثَ كلُّ شيء أمام عينيّ وكأنّ شيئًا لم يحدث. وجدتُ نفسي في لحظة واحدة كائنًا مختلفًا، خائبًا تمامَ الخيبة. كنت قد يئست تمامًا، لا أعرف كيف. يئست يأسًا غامضًا، يأسًا قاتمًا دفعني إليه صمتي عن العالم، صمتي

عن نفسي. أغلقتُ عينيّ قلت لن أرى العالمَ، العالمُ غائبٌ، قلتُ، أغيب عنه كي أجعله غائبًا. مقامي فيه كغيبتي عنه وغيابي عنه كغيابي فيه. آنذاك أصبح جزءًا منه، جزءًا نسيًا، أصبح ظلًا، ضوءًا ثابتًا لا ينبثق ولا يخبو. كنت عجزت حقًّا عن إدراك العالم ليس لأنّه غامضٌ ما يكفي بل لأنّني كنت غامضًا أنا نفسي، أغمضَ من العالمِ نفسِه. لم أستطع أن أبرّر وجودي فيه ولا أن أفسّره أيضًا. أفترضُ في أحيانٍ ما لا يُفترض وما أفترضه يكون. لكنْ لم أعدْ آبه لأمر مماثل. العالم يغمضُ أكثرَ فأكثرَ وأنا كذلك. العالم يبتعدُ وأنا أبتعد كذلك. ننفصل، أجعل العالم حلمًا أستسلم له، أجعله فكرة مجرّدة، بريقًا خاطفًا سرعانَ ما يضمحلّ. ولم يكنْ يكتملُ العالم إلاّ في غيابه، في غيابي عنه، في غيابي فيه. عجزتُ كلّ العجز عن مهادنته، عجزتُ كلّ العجز عن تبديله. سقطت في حفرة وحدتي وغدوت خاويًا خلْوًا من أيّ أثر يذكّرني به. إحساسي بالعالم يحدّد العالمَ فلا يتبدّل إلاّ حين أتبدّل أنا. غير أنّي ما لبثتُ أنْ انقطعتُ عن العالم كي أدركه أكثرَ. في قلب العالم لا تكون فكرة ولا رؤية. في قلب العالم لا تكتمل إقامة. صخبٌ فقط ووحشة لا تُحدّ، ووقتٌ ليس بالوقت، بطيء ومكتدّر. حين قرّرتُ أنْ أبدّل العالم، خلوتُ بجسدي، بجسدها جعلتُ جسدي، جسدَها بديلًا من العالم، أغلقت عليّ، أغلقنا على جسدينا، رحت أواجه نفسي، رحنا نتمرّغ في عتمة الأفكار المضطرمة. وكان أن انقطعت عن العالم، عن العالم المقيتِ، القانط، المتلبّد، عن العالم الميْت، الرتيب، المملّ، البارد الذي لم يكنْ هو العالم. كان العالم مفقودًا ووجدته، كنتُ مفقودًا بدوري ووجدتُني حين خلوتُ بنفسي، بجسدي، بجسدها، أدركت تمامًا أنّني قادر على تبديل العالم، جعلت العالم أنقاضًا ورحت أرثيه. آنذاك غاب كلُّ شيء ولم يبقَ سواي، ساهرًا خارج اللّيل، ساكنًا خارج النهار. آنذاك لم يبق من تباين بين العتمة والعتمة بين الضوء والضوء.

حين تَرَكَتِ البابَ مفتوحًا وراءها أدركتُ أنّها لم تحتمل الفكرةَ التي راودتنا طويلًا. فهي لم ترحل فقط بل تركت وراءها فسحة تُطلُّ على النهار الذي كان من الممكن ألاّ يَينع في ذلك النهار. دعتني إلى الخروج، إلى جواز العتبة التي تفصل بين عالمين، بين وحشتين. لكنّني لم آبه. حين طلع الفجر شاحبًا شعرتُ أنّني كائنٌ مختلف، أنّني خفيفٌ كالظلّ، هادىء، صافٍ صفاءً غريبًا. لم أفكّر كثيرًا في ما حدث. فتحتُ عينيّ جيّدًا ونظرتُ من حولي. كلُّ شيء كان على هدوئه ورتابته. أغلقتُ الباب واتجهتُ نحو النافذة. كانت الخيوطُ الأولى للضوء تنسلُّ ببطء. وكان أوّلُ الصباح خاويًا كلّ الخواء وكأنّني ما عرفت مثيلًا له. كان ينتابني إحساس غامض، ضيقٌ ما. وقفتُ طويلًا أمامَ النافذة من غير أنْ المحَ طيفًا. زرقةُ البحر تختلف أيضًا في هذا الصبح. ربّما هما عيناي لا تبصران جيّدًا: كيف تتشابهُ الألوانُ وتفقد ما يجعلها تتنافر وتتنافى، ما يجعلُ الأبيضَ مختلفًا عن الأزرقِ والأزرقَ مغايرًا للأصفرِ الباهت. كانت الزرقة تخالجُ عينيّ ولم أكنْ

أبصرُ إلّا الزرقة تغشى عينيَّ ماحيةً زوايا المنظر. نظرتُ إلى جسدي ووجدته أزرق، وكذلك السرير والباب زرقاوين ألفيتُهما. كان غيابُها الصباحيُّ أزرقَ بدوره، داكنَ الزرقة. هكذا شعرته. لم يكدْ يمضي وقتٌ قليلٌ حتّى أدركتُ معنى غيابها. كنتُ في حال غامضة حين نهضتُ ورحلتُ، أرِقًا بين نوم ويقظة، مكتدّرًا، مخدّرًا يضربني شلل ما، خوف ما. لم أكن أريدُ أن أفتحَ عينيّ كي لا أدرك الهواجسَ التي تخترقني. حين استيقظتُ تمامًا أدركت بهدوءٍ معنى رحيلها. أغلقتُ البابَ من غيرِ أنْ أدري. ولم أدركْ إنْ كنت متفائلًا أم قانطًا. أحوالٌ وأحوال لا أقدر أن أحدّدها، تلتبسُ عليّ فألتبسُ على نفسي ولا أعرفُ إنْ كنتُ غامضًا حقًّا غموضي الذي لا نهاية له.

ربّما لم تكنْ لتقوى على المضيّ في الموت. كانت الفكرةُ صعبة وشائكة. ربّما لم تستطعْ أن تتصوّر تمامًا ما يلي الموت، ما يعقبه في العالم وما وراءَ العالم. وعلى الرغم من غيابها الشاسع داخلَ العالم وصمتها المطبق الّذي اختارته قصدًا لم تحتملِ الفكرة المخيفة. خرجتْ إلى شمس العالم، إلى ظلمته، إلى برودة، إلى رتابته. لكنّها خرجتْ من جحيم الوحدة، من جحيم جسدها، من جحيم جسدي، من جحيمم الجسدين يرتجفان، يتداخلان ويتلاشيان. حين افتقدتها في الصبح شعرت بحيرة كبيرة وكأنّني افتقدتُ نفسي. خوفًا خفت. أبصرتُ نفسي أمام هاويةٍ لا عمق لها. تجاهلتُ كلّ ما حدث في الليلة الأخيرة. في الليلة التي كادتْ تكونُ أخيرةً. وهنَ جسدي كلّه وغدوتُ ركامًا. حين شعرتُ أنّني أختنق وأنّ الغرفةَ تضيقُ بي فتحتُ الباب وخرجتُ. فتحتُ الباب ورحتُ صوب النهار الميّت، صوب النهار القليل.

عندما رجعت كانت الشمس حادّة والنسيم حارًّا دافئًا يلامس وجهي وعينيّ. ما إن دخلت الغرفة حتّى عاودتني الأفكارُ نفسُها. وجدتني وحيدًا في أقصى حالات الوحدة. لم يكن غيابها سهلًا. أدركتُ منذ اللحظات الأولى معنى حضورها وسطَ الدمار الذي يتراكم من حولي. كانت أيامي أَفَلَتْ وباتت كالأنقاض. كان الخراب الكبير قد حلّ عليّ، وتداعى كلّ شيء أمام ناظريَّ. الحاضر، الماضي. الذاكرة، الجسد، الأحلام... فتحتُ عينيَّ وأبصرتُ وصمتٌ صمتًا مريبًا. لم أكن قادرًا على فعل شيء، عاجزًا تمام العجز، كمخلّع لا تنبض فيه إلاّ روحُه الضئيلة. تحطّمت كالمرآة وتناثرتُ وأمام عينيّ تحطّم العالمُ كالمرآة وتناثر. توجّهت نحو النافذة. قلتُ أخفّف من وطأة الأفكار التي لا أعرفُ من أين تهبُّ. لكنْ سرعانَ ما لمستُ غيابها. كنّا نتقاسم النافذة في أوقاتٍ كثيرة، نطلُّ بوجهينا على ضوء القمر، على أوّلِ الصبح، على زرقة البحر، يلتصق جسدها العاري بجسدي، تفوح منهما رائحة الليل، رائحة الرغبة الغريبة والزبد. أغمضتُ عينيّ، حاولت أنْ أنقطع عن الذكريات، غبتُ قليلًا ثم عاودتني الذكريات. أقولُ الذكريات كي لا أقول الأفكار التي تخزُني وخزًا. ذكرياتٌ

وأفكارٌ تختلطُ عليَّ: ذكرياتُ أمسٍ قريبٍ، ذكرياتُ أمسٍ بعيد. أفكارٌ، أفكار تحاصرني، تبعثرني، تبعثر ذاكرتي. يصبح الحاضرُ ذكرى حاضرٍ لم يكنْ فيما تندلعُ صورٌ من ماض غامض أجهله، أجهل إن كان ماضيّ. حين نظرت إلى السرير تذكّرت ما كان ممكنًا أن يحدث هذا الصباح. كان علينا آنذاك أنْ ننهي كلَّ شيء. أنْ نُنهي حياتنا، حياتنا وموتنا.

هكذا الموتُ نهارًا أجملُ منه ليلًا. نلتصق بعضنا ببعض ونتهاوى في الضوء. يغمر الضوء عيوننا فتنطفىء في ثناياه. كان للموت أنْ يغدو آنذاك كاليقظة. نتلاشى في فضاءٍ مفعم بالألوان،

نهزمُ العتمة، نخترقُ جدارَها. نرغو ونزيدُ كما لو رغبةٌ عميقةٌ حدثت فأغمضنا عيوننا. كنّا نتمرّغ في السرير، نمرّغه كنّا بالأبيض الزبدِ، زبدِ الموتِ، زبدِ الرغبةِ، الرغبةِ التي إنْ غدتْ موتًا، فموتًا خارجَ الموتِ تغدو. تقاربُ الموتَ وتضيئه، تجعله بياضًا شاسعًا يخالج العينين ويشيع كالخدر في الجسد المشتعل. كان موتنا ذاك ليكون أجملَ موتٍ. فالزبد الذي يرغو به الفم يخفّف من وطأة الإحساس الأليم الذي يسبق ويرافق موتًا مماثلًا. كنّا نلتصق جسدًا بجسد ونغرق في الزبد، ننخطف في احتراقنا.
كنت ما زلت حائرًا ومتردّدًا كعادتي وهي أيضًا حائرة وخائفة. لكنْ كنّا مضينا في خطواتنا بعد أن لمسنا أقصى غموضنا وقلقنا، أقصى وحدتنا وعجزنا. كان خواء عظيم أمامي ومن ورائي خواء عظيم، كان العالم انتهى في عينيّ وكنتُ على أنقاض العالم أقف، أرنو إلى ضوء لا أبصره تمامًا. فكرة الموت آنذاك كانت طريقنا الوحيد نحو الضوء الذي كنّا نمسّه في عزلتنا الشديدة. كنّا نحسُّ موتنا معًا من غير أنْ نعيه، نختلجُ به، ننضحُ به من دون أنْ نبصره. كان يحلّ علينا ضوءٌ ما، ضوءٌ غامضٌ يعترينا، يجعلنا نرتجف ونتشابه غائبيْن أقصى غيابنا. كنت حين أقف أمامها إنّما أبصر جسدي وكانت تبصرُ جسدَها حين تنهضُ أمامي. صرنا معًا نغدو كأنّنا واحد، كأنّني وحيد بها، كأنّها وحيدة بي، كأنّنا امّحينا جسدًا لجسدين، جسدًا لروحين، كأنّنا امّحينا ذكرًا وأنثى.
هكذا وجدتُ نفسي وحيدًا في الساعات الأولى للنهار، مرتبكًا، متجهّمًا وخاويًا. حاولت أن أتمدّد في السرير وسرعانَ ما انتفضتُ حين تذكّرتُها. نهضتُ وتوجّهت نحو النافذة. لم يكن عالمي الصغير يتّسع لحركتي الرتيبة من السرير إلى النافذة ومن النافذة إلى المرآة. لكنّ النافذة كانت تمنحني مساحة أخرى وضوءًا آخر. كنتُ حين أطلّ منها أشعرُ أنّ العالم ما برح حاضرًا، لكنْ كذكرى، كذكرى فقط. كان المشهد الواحد أمامي يختصرُ العالم، وكنت أكتفي به، بوضوحه حينًا وغموضه حينًا. أمّا المرآة فكانت زاوية ثابتة من عالمي القليل، كانت أيضًا مساحةً أخرى أطلّ عليها لأبصر ما لا أبصرُه غالبًا. فالمرآةُ تضعني أمام عينيّ، حيالها أصبح مزدوجًا، يصبح وجهي وجهين وأكثر. كنت أقف طويلًا أمامَ المرآة حتّى أُصابَ بحالةٍ أعجز عن وصفها. كنت آنذاك تعتروني أحاسيسُ غامضةٌ وأنخطفُ انخطافًا هادئًا. أغيب وأرجع وكأنّني لا غيبة غبتُ ولا رجعةً رجعتُ. ألتمس وجهي بيديّ، أحرّك عينيّ غير متيقّنٍ إنْ كنتُ أنا نفسي أم أنّ شخصًا آخرَ حلّ فيّ. كنت حين أغمض عينيّ أدركُ الوهم الذي يختلجني. أتذكّر أنّني أنا. لكنّه الوهمُ الجميلُ ألابسه وأصبح وَهْمَهُ حتّى لأعجز عن أن أميّز بيني وبين صورتي في المرآة. كنت أخاف حين يحلّ الصمت المطبق. أُحدِثُ جلبةً ما كي أتذكّرَ أنّني ما برحتُ أنا نفسي، أفعتلُ ابتسامةً سرعان ما ترتسم على صفحة المرآة، أحرّك جفنيّ، أغمضُ عينيّ وأفتحهما بسرعةٍ كي أظلَّ على يقظتي. كانت المرآة تثير فيّ ملًا مختلفًا وخوفًا، تذكّرني بوجهي، بجسدي، تجعلني أغرقُ في ذاتي تنتهبني حالاتٌ وحالات، وفي خلالِ لحظاتٍ أتوحّد فيَّ أُصبحُ أنا من ينظرُ وأنا من يُنظرُ إليه، أُصبح العينَ الّتي ترى وما تراه العينُ في وقتٍ واحد. كانت المرآةُ جزءًا من عالمي الداخليّ. تضيف إلى حياتي الموهومة وهمًا أعمق، وهمًا حقيقيًّا، وهمًا ألمسه بيديّ. كان عالمي ذاك ضيّقًا ورتيبًا، دافئًا وباردًا، مقفرًا ومُضاء تحدّده النافذةُ والمرآةُ، النافذةُ وزرقتُها، المرآةُ وأوهامُها.

الغرفة هادئة تـمام الـهدوء، نائية، منفصلة عن العالـم وكأنّـها خارجه. لكنْ لـم أعدْ أذكرُ كيفَ أتينا ومتى ولا متى رحلتْ وتركتْ وراءها ضوءًا مسّ عينيَّ. أذكر فقط أنّنا غادرنا العالـمَ وانغلقنا على نفسينا، على جسدينا. كنّا أمسينا لا حاجة بنا إلى العالـم. كنّا قرّرنا أنْ نتخلّى عنه، أنْ نختصرَه، أنْ نحيا خارجَه وأنْ نموت خارجه أيضًا. كان لدينا الكثيرُ من الذكريات معًا لكنْ تبعثرتْ فـي عتـمةِ أوقاتِنا، أوقاتنا الـمملّة القاتـمة. أذكرُ أنّنا اختلينا، أنّنا خلونا جسدًا بجسد، موتًا بموت. كأنّنا لـم يكنْ من ماضٍ لنا ومن حاضرٍ. كأننا لـم يكنْ من غدٍ لنا ننتظرُه. ورحنا نغيبُ كلٌّ فـي نفسه، كلٌّ فـي الآخر. غبنا وغابَ عنّا العالـمُ، أصبح كالذكرى، كالذكرى الـهاجعةِ فـي خواءِ جسدينا.

الغرفة إذن وحدي فـي الساعات الأولى للنهار لا أدري ماذا أفعل. حائر ومتردّد. حلَّ غيابها علـيّ فجأة، ووجدتُ نفسي مرتبكًا وكأنّني ما نجوتُ من موت شئناه معًا. ربّما شعرتْ هي أنّـها نجت وربحت نفسها، فـي حين شعرتُ أنّني خسرت كلّ شيء. لـمْ تجذبْني الشمسُ فـي ذاك الصباح وعلى غير عادتي لـم أحاول استيعاب الأضواء الأولى. لـمْ يأخذني الإحساسُ الـمفترضُ الذي يرافق عادة فعلَ النجوة. كأنّني ما نهضتُ أبدًا، كأنّني لـم أتحاشَ الـموتَ، موتَنا. حالةٌ غريبة جدًّا، غريبةٌ وألـيمة. فراغٌ عميق ينتابني كما لو أنّني أتـهاوى فـي فضاءٍ خاوٍ لا مستقرَّ لـه، كأنّ حمأةً تجذبني فأتخبّط فـيـها ولا أخرج. وجدت نفسي فجأةً أمام هاويةٍ تطلّ على هاوية. كنت فقدتُ كلَّ شيء. ماتت فـيَّ حواسّي وغدوتُ حطامًا رميمًا، لا جسد يـهمي فـيَّ ولا روحٌ ترفّ. تحيقني الظلـمة وتحلُّ بي فـي وضح النهار فلا أبصرُ ولا أحرّك وجهي، أقبعُ فـي صمتي الـمطبق وألغو، تعصفُ بي خطراتُ ضوءٍ ناءٍ أحاول التـماسه فيفرّ كالسراب.

كأنّني ميْتٌ ولست ميْتًا. أفكّر فـي ما حدث من حولـي ويحدثُ وأعتكر بشدّة. سئمتُ كلّ السأم، وضجرتُ ضجرًا عظيمًا، ضجرًا يفوقُ الضجر نفسه. صباحٌ قاتمٌ كليلٍ. صباحٌ أشدُّ قتامًا من اللّيل. ظننتُ فـي البدءِ أنّني أكتشفُ ملـمحًا آخرَ للنّـهار، ناحيةً أخرى لـه. كأنّني غبتُ فـي النهار واكتشفتُه كنهارٍ أوّلٍ للغياب. كان للضوءِ طعمُ موتٍ لـم يكتـمل. وكنتُ أستسلـم وأتراجع. أموتُ ولا أموت. أتألّم بشدّة ألـمًا غريبًا أحسّه لأوّل مرّة وأجهلـهُ وأجهلُ حلوله ومدى اختلاطِه فـي حطام الجسد ونثار الروح. أغْلَفُ الشفتين صامتٌ، مرتبكٌ. عماء يغشى عينيّ. كأنّني ولدتُ مرّة أخرى، كأنّني متّ مرّة أخرى. غير أنّي ما زلتُ وحدي فـي الغرفة نفسها. أشعر أنّ الغرفة تبدّلت فـيما لا تزال هي نفسها. أكتشفها وأكتشفُ العالـم من وراء النافذة. ماتتْ حواسّي وغدوتُ وحيدًا واحدًا كظلّ ضئيل لجسد كان ولـم يبقَ. ماتت فـيّ رغبتي وما برحتُ أواجه خواءَ الـموتِ، حادًّا وشارخًا من فرطِ الوحدة. لـم أكن أعي كيفَ أخرجُ من حصاري الـمقيت، من حصاري لنفسي، من حصار الغرفة والأفكار التي تنهض فـي الصباح الأول، الصباح القاتـمِ.

أعرف أنّني وحدي الآن أجلس إلى الطاولة ولا أرغب فـي أن أغادرها، أحدّق فـي أوراق بيضاء أمامي ولا أرفع رأسي إلاّ قلـيلًا. كان جلوسي إلى الطاولة قبالةَ الزرقة يثير فـيّ عزاء ما، يذكّرني بأوقات طويلة وغامضة أمضيتـها وحيدًا أعانق بياض الأوراق الـمبعثرة. كان لبياض الأوراق دفـءٌ داخلـيّ يُشعل فـيّ إحساسًا غريبًا مبـهمًا ينهلّ كالضوء. وكنت أستسلـم للبياض الـملتـمع تسيل على مساحاتـه أفكاري السوداءُ الـمتجهّمة وحالاتُ الاختناق والخوف وما يعقبـها من صفاء حينًا واحتداد حينًا. غير أنّني بتّ مجرّد كائن أعزل أرمق الأوراق طويلًا ولا أجرؤ على ملءِ فراغاتـها الـمخيفة. أوراق باردةٌ برودَ الـموت، بيضاءُ بياضَ العدم، خاويةٌ كحفرة، تتلاشى أمام

عينيّ وتُغرقني في سديم الصمت. كنت هجرت أوراقي وقتًا طويلًا وفقدت الرغبة في المثول أمامها والاستسلام لخوائها الصاخب. آنذاك وجدت نفسي غريبًا عن الكلمات التي جبلتني وجعلتني كائنًا حيًا، عن الكلمات التي أيقظتني من سبات كان ليمتدّ وأخرجتني من غفلة الصمت الأوّل.
كنت في الأوقات العصيبة ألتمس لا جدوى الكتابة وعبث الكلمات فأنقطع فترات وفترات، أكون خلالها شاهدًا فقط، شاهدًا على ما يحدث وما لا يحدث، ما يجري في الجهار وما يجري في السرّ. لم أكن قادرًا على كسر الصمت والخروج إلى شمس الكلام. كنت كمن لا يقوى على النطق، يرغب في أن ينطق ويجد نفسه عاجزًا فيغضّ ويستسلم لعجزه. كنت أسرّ حين ألتمس نفسي عاجزًا عن الكتابة إذ أكتشفها حينذاك كما للمرّة الأولى، كما لم أدركها من قبل، أكشف السرّ الكامن في عمق غيابها. وكنت أجلس طويلًا إلى أوراقي وكانت تخذلني أوراقي، كنت أخذل نفسي ربما. فأنا ما عدت أملك الرغبة التي كانت تحدوني سابقًا إلى الكتابة في أوقات العزلة الطويلة حين أواجه نفسي بنفسي. كانت الكتابة آنذاك وهمًا لعزاءٍ ما، لأملٍ ما، منفى داخل منفى كانت، منفى داخليًّا أقلّ برودًا وأشدّ وهمًا من العالم، من منفى العالم. كانت الكتابة تحنّ كالثمار التي تسقط وحدها لرغبتها في السقوط فقط. كنت أستسلم للخدر الذي تثيره الكلمات، للرغبة الأثيرة التي تفوح من شقوق الكتابة وحين بتّ عاجزًا عن تلمّس الخدر ذاك والرغبة تلك وجدتني خاويًا عاجزًا عن اجتراح الكتابة الملتمعة كالمعجزة. كنت غرقت في لا جدوى الكتابة، في عبثها العقيم. فأنا لا أكتب لأكتب فقط، ولا أملك أيّ هاجس خارج الرغبة التي تثيرها الكتابة وترغو بها. فالكتابة هي الرغبة في الكتابة، هي اللّذة المفاجئة التي تعروك فيما أنت تستسلم لها بهدوء كلّي. غير أنّني لم أفقد رغبة الكتابة إلاّ حين دخلتْ فيّ رغبة الجسد. لم أفتقد عادة الكتابة إلاّ حين عانقت عادة الجسد. لم أخرج من جحيم الكتابة إلاّ حين غرقت في جحيم الجسد. فجأة أطلّ عليّ جسدها، من ليلٍ أطلّ، من صمت، كشمس غير منتظرة، كزهرة الجفاف. وما فتحت عينيّ حتّى أغمضتهما. غبت طويلًا. غبنا طويلًا وامّحينا؛ يغسلنا رحيق الشهوة، تختلجنا الرعشات تلو الرعشات. آنذاك غَدَتِ الرغبةُ الغامضة الساطعة كالبرق خيطًا واهنًا يفصل بين الجسد والكتابة، بين الجسد وماضيه، بين الكتابة وموتها. كانت الرغبة بداية لزمن غامض جدًّا، نهاية لزمن غامض جدًّا.
أعرف أنّني وحدي الآن، لا ألمح إلاّ وجوهًا غامضة تلتمع وتخبو سريعًا في رماد العين، لا أذكر إلاّ أصواتًا ترتجف في صمت كلّي. غائب في زمن غائب، ذكريات قليلة تنبثق في عتمة الذاكرة وأحاسيس غريبة تختطفني. غائب في زمن رتيب وخاوٍ. حطامٌ جسدي وروحي مهيضة. ربّما فقدت حواسّي، ربّما مات فيّ كلّ شيء. أجلس إلى أوراقي ولا أرغب في رفع ناظريّ، يخالجني البياض كالموت فأتذكّر دفعةً واحدة ما لم أقدر على تذكاره. وجوه تتناثر، ظلال وأصوات ووجوه، وجوه وأطياف تختلط عليّ وتتبعثر. غاب جسدي عنّي وغدوت بلا جسد. أجلس كالظلّ، أرقد كالطيف، لا أتخيّل وهدةً أنزل فيها ولا هاوية أسقُط في عتمتها. البياضُ أمامي. البياضُ يغزو الجهات كلّها. يرفّ جسدي على مساحاته، يتوارى في ثناياه الخبيئة. ولم أكن قادرًا على تحريك يديّ. خَواء الصفحات يجعل يديّ عاجزتين. ربّما هو الخوف. ربّما الرهبة التي تعتريني. لم أبقَ قادرًا على تحريك يديّ. كأنّني فقدتهما في فقدان هاويتي، في فقدان الرغبة التي تدفعني إلى الهاوية، شديدَ الغبطة مليئًا وخاويًا كقمر. كان الوقت يمضي بطيئًا وغامضًا ولم أكن أعي مضيّه. ليل فليل وصباح وليل ولم أكن أسمع ولا أبصر إلاّ لماحًا. رغبات عميقة

تستعر فـي أعماق روحي كالأدوار. يمتلكني جفاف كجفاف الصحراء. الورقة البيضاء أمامي: أمّحي بـهدوء على صفحتـها الـملساء الباردة. أحمل البياض فـيّ كما لو أنّـه بياضي كما لو أنّني بياض الأوراق نفسها.

كنت فقدت عادة الكتابة منذ زمن بعيد وافتقدت الرغبة التي ترافق الكتابة عادة وكثيرًا ما وجدت نفسي واهنًا أمام أوراقي، خاويًا، غامضًا لا أملك ما أقول، لا أملك القدرة على القول. كنت صامتًا أصغي إلى ما يعجز الكلام عن قولـه وكنت أكتفي بالإصغاء، أستسلـم لتجاويفه، لـمنزلقاتـه، فأغيب وأغيب لا يـحدّثني أفق ولا يشرق ضوء علـيّ ولا تغمرني عتـمة. ولـم أكن أسمع صوتًا ما أو جلبة، أصغي ولا تتناهى إلـيّ إلّا رجفات داخلـيّة تحدث بـهدوء، تـمزّقات ربّما أثيرة وكأنّني كمن أصابـه الزمع وأخذتـه الرعدة، أُصبحُ الرجفة نفسها، أصغي إلـيّ ولا أسمعني، غائبًا منتـهى الغياب. ربّما لـم أكتب طيلة حياتي، لا أذكر، ربّما كتبت لكنْ كمن يتحاشى الكتابة مأخوذًا بالإصغاء. كأنّني ما خبرت الكتابة، كأنّني جِهلتـها تـمام الجهالة وغدوتُ يرين البياض على عينيّ ويشعّ وسع الجسد فلا أبصر ولا أسمع ولا أنطق، غائبًا، غيبة تلو غيبة. كنت حين أوهم نفسي بالكتابة وأهمّ بالجلوس إلى أوراقي، ألتـمس استحالة الكتابة وأغدو ركامًا رميمًا محطّمًا تحطّمَ الكتابة نفسها. كان لديّ كلام كثير أبتغي قولـه لكنّـه سرعان ما يتلاشى حال الكتابة وكأنّ لا شيء لديّ أقولـه، ولا فكرة أرغب فـي أن أفصح عنها. خواءٌ، كثيرًا ما جعلني قلِقًا أواجه صمتي فـي اللـيل وعجزي فـي النهار. لـم أكن أدري كيف تـمضي بي النهارات خائبًا فـي عالـم لا يشبـهني، فـي عالـم أختلف عنه كلّ الاختلاف. حالات أعجز عن وصفها، تلك التي أغرقتني طويلًا فمتّ ولـم أمُتْ وحييتُ ولـم أحيَ وعييتُ حتى بتُّ كمن غشيَ علـيـه مفتوحَ العينين. لـم أكنْ أحتاجُ إلى الكتابة ولا إلى الوهم الذي تحدثه الكتابة. كان العالـم غائبًا آنذاك وكان خواءٌ لـم يكن مثيل لـه، خواء يـخترقني ويـجعلني كالطيف العابر وهْمَ وجودِه. كأنّني وُجدتُ لأصغي فـيما أحاول أن أقول، أن أصغيَ وأن أقولَ كما لو أنّ الإصغاء والقول فعلٌ واحد. وكم كان يـحلّ علـيّ الصمت كالسحر فأنغلق على نفسي وأحسّني متلبّدًا وكامدًا، غائبًا، متفتّح الحواس كمن أدركه انخطاف وحلّت بـه الزوغة. وكنت حين أنـهض أشعر أنّني عاجز أيضًا عن الكتابةِ. دومًا أفتقد ما أقول والوقتَ الذي ينبغي أن اقول فيـه والطريقة التي ينبغي أن أعتادها كي أقول. كنت فقدت عادة الكلام وسقطت فـي عادة الجسد. ما لبثتُ أنْ وجدتُ نفسي عاجزًا عن الخروج من هاوية الجسد. كنت أبحثُ عن الـهاوية الأعمق لأعلن صمتي الذي لا يلـيـه صمت ولأرى كمن لا يرى إلاّ نفسه، ولأُصغي كمن لا يُصغي إلاّ إلى نفسه فيما هو يرى العالـم ويُصغي إلى ضوضائه، إلى صخبـه الـمميت. هكذا وجدتُ نفسي أمام أوراقي أحاول أنْ أكتب، أن أخرج من صمتي، وصمتي يلاحقني كالظلّ، كالبياض الذي يغشى عينيّ ويـحلّ فـيـهما.
حين التقينا لقاءنا ذاك كنّا قرّرنا أنْ ننهيَ حياتنا خلال وقت لـم نحدّده تـمامًا، لكنّـه لـم يكنْ لـيطول فالسأمُ كان عميقًا وكذلك الوحشة والـيأس والخيبة والعجز فـي كلّ شيء، أمام كلّ شيء. كان ثمة هَجْسٌ داخلـيّ يـجمعنا فـي السرّ ويدفعنا إلى الـموت الذي اخترناه بالصدفة بعد أن التصقت وجوهنا فـي الجدران الكثيرة التي كانت تحاصرنا، بعد أنْ تجرّحت عيونُنا من فرط التحديق فـي الفضاء الرتيب. كانت الظلـمة تنبثق من أعماقنا وتكنف الـمنظر الوحيد للعالـم. كنّا قد اختصرنا العالـم فـي منظر واحد ثابت لا يتبدّد. ربّما هو العالـم نفسه توارى عن أنظارنا ولـم يبقَ منه سوى

منظر وحيدٍ ثابت جامد لا يحرّكه هواء ولا تهبّ عليه نسمة. هكذا وجدنا أنفسنا حيال هاوية تعقبها هاوية. لا الانتظار كان قادرًا على منحنا بارقَ رجاء ولا الجسد استطاع أن يكون أكثر ممّا كان، ممّا كنّاه. كان العالم أصبح قليلًا وغريبًا، وكأنّه لم يعدْ هو العالم، لم يعدِ العالمَ الذي كان. فَقَدَ لونَه وبريقَه وباتَ كالقفر مجدبًا قاتمًا كالحَ السواد. كنّا أصبحنا غريبين في عالم لا يفهمنا، في عالم نحاول أن نفهمه ونعجز. غير أنّنا وجدنا أنفسنا عاجزين أيضًا عن إشباع رغباتنا وقد فقدنا الشهوة الداخليّة وغدونا عاريين حتّى من جسدينا الواهنين، نتقابل كظِلّيْن منكسرين على حافّة الرغبة الميتة. كان جسدانا يبتعدان ويقتربان، وحين يتلامسان، يغيب الواحد في الآخر كالصوت الذي يغيب في صداه ولا يترك أثرًا. في أعماقنا، كانت تشتعل رغبة غامضة تخترق جسدينا كالسهم فنمتزج ونضمحلّ، فيما عيوننا مفتوحة ترمق الفضاء بحزنٍ أليم. حين التقينا لقاءنا ذاك كانت تفوح من عيوننا رائحةُ موت مقبل، رائحةُ خوفٍ ظليل.

لكنّني وحدي الآن، جالسٌ إلى الطاولة الوحيدة، تلتمعُ الأوراقُ في عينيّ ويبرق ضوء كالسراب في الصحراء. يداي باردتان ترتجفان وعبثًا أكتب. صامت صمتًا عظيمًا. لم أكلّم أحدًا منذ وقت ربّما طويل. عيناي ترنوان إلى البياض الذي تتركه الأوراق الباردة وسْعَ الطاولة، ملءَ المساحة التي تستقيم أمامي. أفكاري غائمة ومبهمة وكمن غادرته الكلمات، كمن تخثّرت الكلمات في فمه أركن إلى صمتي مأخوذًا بأحوالي التي لم أفقه سرّها، أتذكّر فقط صمتَ الصامتين، أولئك الذين كنت أتفيّأ ظلال صمتهم الوسيع وأغرق في دفء عيونهم، في رقّة نظراتهم المنكسرة، أولئك الذين مضوا كالأطياف ولم يغادروا مرّة صمتهم. أتلمّسُ وجهي بيديّ وأمسح العرق الذي يرشح منه. الجسد مستعِرٌ أبدًا، خامدٌ أبدًا. كالظلّ أنحني قليلًا وأرفع وجهي. لم أعد أميّز بين وقت وآخر، خارج الوقت أصبحت، خارج العالم.

لا أدري أيّ وهْمٍ يثير فيَّ منظرُ النافذة التي تطلّ على الشاطىء، على الماء الحائل الألوان. منظر واحد يتبدّل، سرعان ما يتبدّل حين أستسلم لهدوئه. يذكّرني بما ظننت أنّني نسيته، أو يجعلني أنسى ما ظننتُ أنّني لم أنسه. منظرٌ واحد كم يبدو الآن كامدًا وكئيبًا. كنّا غريبين تمامَ الغربة، غائبين تمامَ الغياب، لا الزمن زمننا ولا النافذة نافذتنا ولا البحر. القلق المتوقّد في داخلنا جعلنا في حالٍ من الارتباك فانغلقنا وتضاءلنا حتّى أصبحنا كطيفين لجسدين كانا، لكائنين لم يكونا، لكائنين

حاضرين في العالم وغائبين عنه. ولم نكن نبالي. لم يجذبنا شيء في غمرة الانطفاء. كنّا كالدخان نتلاشى ونتأمّل أنفسنا نتناثر بهدوء في عتمة تحاصرنا. وكان يختطفنا ضوء، ضوء ما، يمسّ وجوهنا فترشح بماء داخليّ رطب. وجوهنا كثيرة ولا وجه لنا، لا وجه يشبه وجهنا. كنّا تمدّدنا قليلًا وغفونا وحين فتحت عينيّ كانت لا تزال هي غارقة في نوم غريب. لا تشهق ولا تتحرّك وعلى شفتيها ابتسامة غير مكتملة. حين فتحتُ عينيّ أحسستُ أنّني غريب عن الغرفة فيما هي على حالها، على رتابتها. مرارةٌ ما في عمق نفسي وملءَ عينيّ صور وظلال لم تكنْ تتوضّح. حين التقينا كان الصمت يجمعنا، يمحو الكلام الذي كان من الممكن أنْ نقوله ولم نقلْه. دخلتْ هي بصمتٍ، نظرت إليّ حدّقت في وجهي طويلًا وارتمتْ على السرير. كانت ترغب في البكاءِ لكنْ لم تبكِ، كعادتها دومًا. تؤثر البكاء ولا تبكي، ترغبه، ترغب به يفوح من عينيها. لكن لا تبكي. ربّما أدمعت مرّاتٍ قليلةً، ترغرغت عيناها ببريق خاطف لكنّها لم تبكِ. لم أبصرْها

تبكي يومًا. حين التقينا كنّا غائبين، مقفرَين كالخراب الذي يحيط بنا، كالخراب الذي انتهت إليه حياتنا. كان البريق الخاطف يأخذ عينيها فتلتمعان. كنت أدركُ السرّ الكامن في عمق عينيها اللّتين لم تكونا تحتاجان إلى أيّ دمعة. فالبريق الذي يخامر عينيها كان بكاءها الصامت الذي لا تفوح دمعاته. حين التقينا، ضممتها وانحدرنا إلى نافذة غيابنا، تلك التي تطلّ على عالم غائب. لكنّ المكان لم يكن المكان الذي كان. أغمضنا عيوننا وسقطنا في حمأة الرغبات الميتة.

يا لسأم النهار، يبدأ النهار ولا يبدأ، ينتهي ولا ينتهي. النهار القليل الذي يجتازنا كالهواء، يلامس وجوهنا وعيوننا وأصابعنا ولا يلبث أن يتلاشى ضوءًا ضوءًا. نهار باهت، شاحب، شاحب الضوء، مغلق كفضاء ثقيل، يطلع من عمق انتظارنا، من جلوسنا هكذا، من نظراتنا المنكسرة وغفلتنا التي لا تعرف حجمًا ولا لونًا. نهارٌ يبدأ ميْتًا كرغباتنا وينحدر ببطء في فراغات عيوننا المحدّقة، يميل كالظلّ ويتدلّى على حافّات نعاسنا الخفيف. نهار بلا ضوء، بلا ظلال، يجرفنا بضجره وأُلفته الكامدة، بالخوف الذي لم نستطع أن نبرّره. كانت الشمس تبزُغ وتنطفىء من غير أن نأبه لها، تحدّد الفسحة الأولى للنهار وتخضّب الأفق عند الغروب بحمرة قانية هي حمرة جسدينا. يا لسأم النهار يلتمع ويغرب، لا نلمسه ولا نعتسل في ضوئه. يا لخوائه، يا لفراغ نظراتنا ورتابة انتظارنا. نجلس وقتًا طويلًا أمام منظر واحد يتردّد ولا نراه من فرط ما نراه. في أحيان كنّا نرقد، نغمض عيوننا سهوًا، نغمضها على الألوان الشاحبة للنهار ولم تكن تنتزعنا أيّ رغبة ولا أيّ وهم. نتداعى كجسدين واهنين، خاويين لا يشعلهما الحنين ولا توقظهما الشهوة. كنّا نتداخل جسدًا في جسد، ظلًا في ظلّ، وفي شدّة غيابنا كنّا نغدو طيفًا واحدًا يرتجف أمام الضوء، الضوء الشاحب. كان النهار يتلو النهار وكنّا ساهمين عمّا يحدث، غائبين جسدًا في جسدٍ، عتمةً في عتمةٍ، ضوءًا في ضوء.

كان الوقت يمضي بنا ونحن مستلقيان على السرير قبالة النافذة لا ننهض ولا نغفو يجمعنا عراؤنا ويوحّدنا، يتقاطع جسدانا ويتداخلان. بياضها يتلألأ في عينيّ، ينبلج بين يديّ، ينبثق كالماء وأعجز دومًا عن التقاطه كما لو كان سرابًا. ألصق عينيّ على جلدها وأغمضهما، أغيب في نعومته الجارحة الرقيقة الأرقّ من نسائم الصيف. حين أمَسُّ جلدها بيديّ ينهض فيّ حنين غامض وأغدو منبهرًا كما لو أنّني ألمس جلدها للمرّة الأولى. كان لجلدها أُلفةٌ، حنانٌ آسرٌ وشهقة. يلتمع في الظلّ ويندى يرقّ نزولًا من أعلى كتفيها حتى منتهى الظهر. كانت الجهة تلك تختصر جسدها الموحش، المتلبّد، الفائغ كاللون، كحرارة الشمس، المضطرب، الخامد، الدافئ. لم يكنْ يحلو لي أنْ أحدّق إليها إلاّ من الوراء بدءًا من ظهرها، أعلى ظهرها. فنظراتنا إذا التقت سرعان ما تنكسر وكأنّ كلينا غريب. في السرير كانت ترخي جسدها عليّ، تتوسّدني حتّى إذا نهضتْ لاح عري ظهرها الذي لا يماثله عري. آنذاك يسترسل نهداها الصغيران قليلًا لا توقظهما شهوة. عريُ ظهرها كتومٌ صامتٌ يُخفي سرّه ويُحيي فيَّ رغبةً. وفي حدأةِ انهيارنا معًا، في غمرةِ خيبتنا، لم نكن ننهضُ من السرير، ولفرط ما ضجرنا لم نكن نُحسُّ ضجرنا. آنذاك عرفنا تمامًا كيف يكون السأم وما يعقبه، كيف يلمُس السأم أقصى انهماره، أقصى غيابه. نهمد ونتضاءل يتداخل جسدانا كظلّين. كنّا ننازع نزاع النهار، نميل ميل ضوئه القليل ولدى الغروب يشيع غيابنا كالحمرة التي تغمر السرير وتجمعنا إلى الأفق الممتد وسْعَ النافذة. حين تحلّ الرطوبة الأولى للمساء تنبعث حرارة جسدينا تُرجع النهار إلى السرير فنغمض عيوننا على الضوء الشاحب، على وهم النهار.

كنت كمن يسرق النظر، ألتفت إليـها، تجلس على حافّة السرير فـي عتـمة ملساء شديدة الدفء، ألـمح ظهرها كالطيف لامعًا فـي عتـمة الليل. كانت لا تلبث جالسة لفترة على حافّة السرير، مطأطئة تنظر إلى الأسفل، تبيّن جهة من صدرها، ظلّها يرتسم على الجدار. كان يـحلو لـي أنْ أنظر إليـها طويلًا متّكئًا إلى الباب الجانبي، كئيبًا ومتعبًا. عريـها اللامعُ فـي ضوء القمر واحةُ ألوان كامدةٍ وأحاسيسَ دفينة، بقعة ذكريات ميْتة. كان يلذّ لـي أنْ أسترق النظر إليـها فـي ضوء القمر الذي ينسلّ إلى الغرفة من النافذة. فالشعاع الـمنبثق يبعث فـي ركام جسدي دفئًا ما. لـم أكنْ أدرك إنْ كان يَلَذّ لـها أن أحدّق إليـها من الخلف أم إنْ كانت تعرف فـي السرّ أنّني أنظر إليـها بلذّة غريبة. حين أنفصل عنها أشعر أنّني أختلف عمّا كنتـه فـي السرير. حين أسترق النظر إليـها أحسّ أنّني ما عرفتـها وما عرفت لحظة من جسدها. ظلّها على الجدار يبعث فـيّ حنينًا غامضًا، يـجعلني أحترق كالشمع وكالشمع أسيل. ظهرها حيال عينيّ، صافٍ صفوَ القمر، شاحبٌ شحوبَ وجهي، مترنّقٌ ترنّقي الروحي. ظهرها

الذي ينبلج بدءًا من خصلات شعرها الـمسترسل وانتـهاءً بالـملاءة البيضاء التي كانت تخفـي جزءها الأسفل. كان للملاءة سحرُها الخاصّ كما لو أنّـها من مطارف جسدها، كما لو أنها بقعةٌ من جلدها الفائق العذوبة، الفائق الشهوة.

غيـر أنّني كنت لا ألبث أنْ أرجع إلى السرير أتـمدّد قربـها ألتصق بـها فـي عراء رطب ودافئ. نحسّ كلانا أنَّ شهوة ما تعترينا وأنَّ علـينا أنْ نلتحم أكثر فأكثر. أضمّها بحنان، أنحني فوقها ونتداخل. تغمضُ عينيـها وتفتحهما بصمت. عيناي مغمضتان نصف إغماضة. لم أكنْ أغمضـهما تـمامًا كي لا أقع فـي عتـمة الرغبة ولا أفتحهما كليًّا كي لا يبـهت فيـهما بريق اللحظة الجارحة التي تخدّرني وتنسلّ عبر جسدينا كخيط لا مرئيّ. كان الغبش الذي يـختطفني أجمل ما فـي اقترابنا وانزلاقنا واعتراكنا جسدًا فوق جسد، جسدًا داخل جسد. غبشٌ يغشى عينيّ! كالعشاء يـجعلني متردّدًا فـي أن أبصر أو لا أبصر، فـي أن ألتمع أو أغيب. كأنْ أتحوّل إلى مادّة أثيريّة وحارّة، كأنْ أصبح بقعة من الـهواء الـمغسول برحيق الرغبة. آنذاك، كنت حين ألجها أحسّ أنّني ألجُ الليل، أغرقُ فـي ظلـمة لا قعر لـها. لحظةُ الولوج تختصر الأحاسيس الكثيرة التي تعتمل فـي داخلنا. يزداد الغموض غموضًا ووحشة الليل تـمّحي كلّما أمعنتُ فـي اللّيل، كلّما اختصرتُ اللّيل داخل جسدها. كانت هي تغمضُ عينيـها، تفتحهما، يرينُ على وجهها صفاءٌ مطلق، صفاءُ اللحظة الأولى. كلّما اندفعنا فـي حمأة التداخل يشتدُّ صفاءُ وجهها، تغيبُ غيبتـها مفتوحة العينين، مختلجة العينين تتلألأ فـيـهما دمعاتٌ كثيفة. حين تأخذني الرجفة، اضطربُ وأهتزّ اهتزازًا؛ ترتجفُ هي بصمت، بصمتٍ مطبقٍ، لا تحرّك شفتيـها ولا تتأوّه. عيناها فقط تزوغان، ترنوان إلى الأعلى، إلى جهة غائبة. لـم تكن تحدّق فـي وجهي ولا فـي عينيّ. نظراتنا ما كانت تلتقي فـي لحظات الانخطاف. كانت حين يصدف أن تلتقي عيوننا تدير وجهها إلى ناحية أخرى. كانت بُعيد اكتـمال اللّذة، بُعيد انطفائها تغرق فـي صمتـها أكثر فأكثر تخبّئ وجهها فـي حناياي وتـهجع. تدفع وجهها إلى صدري ويديـها إلى حقويّ وتغرق فـي هدوء كلّي. أمّا أنا فأسترخي هائمًا عذبًا أغمض عينيّ قبل أن تدهمني كآبة ما، قبل أن أرجع إلى وحدتي داخل السرير، إلى وحدتي فـي جسدها، فـي جسدي. آنذاك كنّا نُمسي وحيدين، وحيدين فـي غمرة لقائنا، فـي جحيم انزلاقنا، فـي الرغبة التي تجمعنا وتفصلنا، فـي احتراقنا وبرودنا، فـي صمتنا الذي يـهدّدنا دومًا. لكنّ نعاسًا خفيفًا كان

يسترقها فتغفو قليلًا عارية مستلقية على ظهرها، خافية وجهها بالملاءة البيضاء، ضامّة فخذيها واحدة إلى الأخرى. أمّا أنا فأغرق رويدًا في هدوئها أتمدّد قربها بلا حراك أغيب في رطوبة السرير، في الرائحة الغريبة لعناقنا، لانزلاقنا الموحش ورغبتنا التي تكتمل ولا تكتمل دومًا.

كانت حين تفتح عينيها تنظر كعادتها نظرة غريبة إلى السرير والملاءة التي سقطت عن وجهها، لكن سرعان ما ترتسم ابتسامةٌ خفيفة على شفتيها الصغيرتين. تنظر إليّ نظرة خاطفة وتنهض بعريها اللذيذ وبياضها. كان صدرها الصغير جدًّا أشدّ بياضًا من النواحي الأخرى من جسدها. نهداها صغيران كما لو أنّهما لم يكونا، تختصرهما حلمتاها الورديّتان الطريّتان. نهدان يترقرقان كصفحة الماء، كأنّما ينبثقان وينهدلان في وقت واحد. عندما تنهض كانت تتجه توًّا إلى الماء لتغتسل مغلقة الباب وراءها. كانت تؤثر أن تغتسل وحدها، ربّما لخجل قديم، ربّما للإغراق في اللّذة التي يثيرها الماء حين ينهمر على جسدها. لكنّ اغتسالها لم يكنْ ليدوم طويلًا فسرعان ما ترجع إلى الغرفة تتنشّف أمام المرآة على مرأى من عينيّ. كان يلذّ لها أن تقف أمام المرآة، عارية صارخة العري وأن تجعلني أشاهدها تتنشّف أمام المرآة، تخفي ثدييها حينًا وحينًا حياءها الضارب السواد. وكنت، إذ أجلس على السرير وراءها أبصر ظهرها وصدرها في آنٍ، والناحيتين الغامضتين من جزئها الأسفل. وكانت المنشفة تضفي على عريها وهمًا، رغبة غامضة، كما لو أنّها بقعة منسيّة من عريها تمنح وقوفها في المرآة بريقًا خاطفًا. لم تكن تهدأ المنشفة بين يديها أو تنسدل على ناحية من جسدها وحين ترميها على السرير كانت تأخذني الرغبة في شمّها، في تنسّم المزيج الغريب لرائحة الماء والصابون والعري الأبيض والرغبات الفوّاحة. كنت أضمّ المنشفة نفسها متّجهًا إلى الماء لأغتسل من غير أن أغلق الباب ورائي فأتنشّف بالروائح نفسها، بالنداوة التي تدفئني. كانت هي لا تهتّم تنظر إليّ بصمت وخجل كثير. عيناها تبرقان، وجهها رقيق وناعم، نظراتها تخفي الكثير الكثير من الغموض الذي يكتنفها ويجعلها في حال من التردّد. لم أكن أدري لماذا تؤثر دومًا أنْ تنظر إليّ من الوراء عاريًا؛ في الماء أغتسل وحدي فيما هي تقفل الباب وراءها كي لا أراها عارية تحت الماء، كي لا أراها عارية إلّا في المرآة، في المرآة التي تأسرها.

كانت غريبة حقًا، في مزاجها الغريب المُتَقلّب كالفصول، في صمتها، وعاداتها الصغيرة. كأنّني عرفتها ولم أعرفها. كأنّها عرفتني ولم تعرفني. ظللنا غريبين طوال الأوقات الطويلة التي أمضيناها معًا. لم تكن تؤثر الكلام كثيرًا ربّما لأنّها لم تكن ترغب في أنْ تعبّر عن أمرٍ ما. كانت نظراتها كافية لأن تبوح بما تصخب به روحها الشفيفة، لأنّها تعبّر عن أحوال جسدها، عن شغفها الغريب وأحاسيسها الغامضة. في أحيان كان يخيّل إليّ أنّها بكماء، أنّها فقدت القدرة على النطق منذ ينوعها، فأشعر أنّني أبكم أيضًا لا رغبة لي في الكلام. لكنّنا كلينا فقدنا الرغبة في الكلام والحاجة إليه خصوصًا في الأوقات الأخيرة حين حلّ علينا الصمت، حين ماتت رغباتنا ورحنا نرنو إلى ضوءٍ آخرَ منتظرين أنْ يحين غيابنا. الآن إذ أستعيد وجهها ورائحتها وظلال يديها أدرك أنّني لم أعرفها. صورتها تغيم في عينيّ وفي قراراتي تصبح صورتها كالذكرى. أدرك الآن أنّني لم أعرف ماضيها ولا

حاضرها. وأنّني لم أسألها يومًا عن حياتها السابقة ولا عن أيّامها المقبلة. ولم أكن ألحّ عليها لأعرف عنها ما ينبغي أنْ أعرفه. هيمنت عليّ كمعصية وحلّت، كالضوء دخلت عينيّ ونفذت إلى

بصيرتي ولم تكن بي حاجة لأن أعرف أكثر. غرابتها جعلتها أقرب إليّ وغموضها جعلني أفتتن بها ذاهلًا عن كلّ شيء، صامتًا وميّتًا. ربّما عرفتها كثيرًا، ربّما لم أعرفها من كثرة ما عرفتها. لكنّني لا أذكر الآن شيئًا. أصبحت جزءًا منسيًّا من ذاتي المنسيّة. إنّني الآن في أقصى حالات الانفصال. ما أراه أمام عينيّ يذكّرني بما نسيته أو كدتُ أنْ. رائحةُ جسدِها تردّ إليّ جسدها والآثامَ الجميلة التي كثيرًا ما وقعنا في أسرها. المرآة مكسورة بعريها والنافذة مجروحة بنظراتها. إنّني أتذكّر، أحاول أن أتذكّر، غائبًا أخبّط في ظلمةٍ لا ظلمةَ تماثلها. الآن يجرفني صمتها فأخرجُ عن صمتي وكمن وجد كلمته الأولى أنطقُ وأهذي وأهذّ هذيذًا. فأنا حطامٌ ناطق تأسرني قتامتي، متجهّم لكنْ أليف الذكريات. أذكر كلّ شيء ولا أذكر شيئًا. أعرف ولا أعرف. كمن تعتري عينيه الظلال، كمن يأخذه الغشاء فيحلّ الغبش في ناظريه. أبصر ولا أبصر. أغيب وأرجع. أغتلم اغتلامًا شديدًا وأتهاوى فوق خرائب الجسد، فوق المساحات البيضاء الخاوية خواءَ الجسدِ، خواءَ الروح.

كانت غريبة حقًّا في عاداتها الصغيرة وشجونها التي لم أكنْ أحفلُ بها. تصمت وتصمت ومن شدّة رهافتها تصبح أمامي كالطيف. لكنْ لم تكن تغيبُ. حاضرة دومًا في عينيها اللتين لا تغمضان. تبصران ما يحدث ولا يحدث، تنعمان بالهدوء الرتيب الذي يرين في الجهات. تلمسان الخواء الذي يتفاقم. لم تكنْ تشكو ولا تتأوّه. كانت تدرك كيف تخفي ألمها العميق الذي يفوح أحيانًا من صمت عينيها، من استرسالهما الصاخب. ما كانت تبالي آنذاك بأيّ أمر. تنتظر فقط. تنتظر لتنتظر. تنتظر نهاية ما لا ينتهي. تجلس باطمئنان غريب تنظر لوقت طويل في جهة واحدة وغالبًا ما كانت تختطف النافذة ناظريها فتحدّق وتحدّق. يصفو وجهها فجأة وكأنّ ضوءًا أشرق عليه، ينقى وينقى حتّى يصبح كقمر شفيف. تغيب قليلًا ولا تلبث أن تستيقظ. لا تفتح عينيها لأنّها لم تغمضهما. حين تدرك أنّني أنظر في وجهها يأخذها الخجل الرقيق فتحمرّ وجنتاها قليلًا. تنهض وتتّجه نحو النافذة، تلقي يديها على حافّتها وتحدّق في الزرقة.

أتذكّرها الآن وكأنّنا غبنا طويلًا، كأنّنا وقعنا في هاوية غيابنا، كأنّها باتت ضوءًا في عينيّ: كيف أذكر ضوء عينيّ! أحاول أن أتذكّرها كي أنفصل عنها، كي أراها بعد أن غابت غيبتها الأخيرة. الباب الذي لم تُغْلِقْهُ وراءها ما برح يثير فيّ خوفًا داخليًا. أمور كثيرة اختلطت عليّ وبتّ غائم العينين والذاكرة، مرتبكًا شديدَ الارتباك. لكنّني أعرف فقط أنّني جالس أمام أوراقي، لا أذكر الوقت ولا أعي ما جرى لي وما يجري. إنتبهتُ فجأة أنّني جالسٌ إلى طاولتي الصغيرة لا أرغب في رفع عينيّ. البياض كالحٌ أمامي، سواده يشتدّ أكثر فأكثر كما لو أنّه بياض ذاكرتي القاتمة. أتذكّرها الآن، أحاول أنْ أتذكّرها وكأنّني لم أعرفها. فمنذ أنْ غابت حدث ما لم يكنْ من المنتظر أنْ يحدث. لكنْ لا شيءَ، لا شيء. وجدتُ نفسي أمام هاوية وما توانيتُ عن السقوط. ما زلتُ أبصر الهاوية ولا أتوانى عن السقوط. الهاوية تطاردني كالظلّ فأسقط وتظلّ تطاردني كالظلّ فأسقط. ها إنيّ على حافّة البياض الآخذ في القتامة ميّتًا أفقد الحواسّ وأغرق في برود الجسد الميْت، في انطفاءِ الذاكرة الميْتة.

غير أنّ رائحة جسدها سرعان ما تردّها إليّ فأذكر أنّني أذكرها. أسترجعها فجأة وتحضر بين يديّ. لم تفارقني رائحة جسدها ولا فارقت الرائحةُ السريرَ ولا بياضَ المُلاءة. فالرائحة لا تحين إلاّ حين يتوارى الجسد، تصبح هي ذاكرته. في شدّة اغتياب الحواسِ واختدارِها كان يهبّ جسدها عليّ كنسمة بيديّ وعينيّ، ألمسه بوجهي. كانت لجسدها رائحة تفوق الرائحة. لا أذكرُ

أنّـها مسحتـه بالطيب يومًا. كانت حين تغتسل يرغو الـماء والصابون ملء جسدها فـينبلج جلدها وينصع. كم كنت أرغب فـي ملامسة جلدها الفائح الرطب، أجعل شفتيّ على غضونه الرقيقة، ألتقط حبيبات الـماء وأمرّغ وجهي بالرائحة العذبة التي كانت سرًّا من أسرار جسدها الكثيرة. لـم يكن يرنّقها العرق الـمتصبّب فـي شدّة الحر ولا ماء البحر ولا فوح جسدينا حين يتداخلان ويزيدان. كانت تغتسل لتغتسل مأخوذة باللّذة التي يبيحُها الـماء. تشتدّ رائحتُها نقاءً كبياضها الذي يشتدُّ بياضًا كلّما حدّقت فيـه، كلّما غابت عيناي فـي ثناياه الخفيّة. كانت تفاجئني رائحتـها دومًا، تحتلّني فأغرق فيـها وأستسلم لخدرها العذب. كانت رائحة جسدها نافذة تطلّ على جسدها اللامرئيّ، جسدها الغائب. كانت بداية الجسد ولا نهايته. كانت ذاكرتـه التي لا تغادرني. ربّما كانت رائحةُ جسدِها وهْمَ جسدِها، ربّما كانت رائحةُ الجسدِ الفكرةَ الأصعب من الجسد نفسه.
غير أنّني أجملَ ما كنتُ أراها مستلقية على السرير، عاريةً يمّحي بياضها فـي بياض الـملاءة كبقعة ضوء لا تعكّرها إلاّ الشابيب القليلة التي كانت تختطف ناظريّ. جروح قديمة كانت قد التأمت تاركةً آثارًا واضحة، ندوبًا لا ينساها الجسد. يـهرم الجسد ويتغضّن ولا تتوارى ندوبـه تلك التي لـيست إلاّ علاماتٍ لزمن مضى، لألـمٍ قديم، لخوفٍ، لـموتٍ لـم يـحدث. كانت ندوبـها تتوزّع جسدها، تـمنحه إلى رهبتـه رهبةً، وتُضفـي على غموضه غموضًا. ندباتٌ نافرة حينًا خافية حينا. غير أنّ الجرح الذي يـحتلّ أعلى حوضها إلى الـيمين كان الأبرز وربّما الأعمق. أثرُه واضحٌ نافرٌ كالعصب. كان داخل الـمثلّث الطريّ للحوض كالزاوية وكالسهم فـي أحيان يدلّ بوضوح إلى الجرح الآخر، الجرح الأعمق الذي يـحتلّ أسفل الـمثلث. كأنّ الجرح الأعلى بدايةُ الجرح الأسفل، حنينهُ الغامضُ وذاكرتـه الـموشومة. كأنه جرحُ العالـمِ فيما الآخرُ جرحُ الجسد، جرحُ الرغبة، جرحُ الانتظار. كان يضفـي على الحوض ذكرى

أليمة وسرًّا. كان كالضوء الذي ينحدر ولا يلبث أنْ يتوزّع على العتبة الـمظلمة للفُتحة الأرجوانيّة. كالسرّ الذي لا يتبدّد، يغمضُ أكثرَ كلّما انعكس على مرآة الجرح القديم. لكنَّ مساحة الحوض كانت تبدو نقيّة، شديدة النقاء. فالندبة لـم تشوّه حركة تـموّجها الأبيض ولا استرسالـها العذب. كانت كالسراب اللامع فـي صحراء الرغبة التي لا تنتـهي، كالـماء الذي يشعل الجذوة الداخليّة. أمّا الجروحُ الأخرى فجرحٌ تحت الثدي، تحت الحلـمة التي تختصر الثدي وجرحٌ أعلى قليلًا، فـي قعرِ مفصلِ الكتف. كلا الجرحين إلى الـيمين أيضًا. لكنّ جرح الصدر كان مثيـرًا بدوره لبزوغه تـحت الثدي، إذ يَخِطُّ البياضَ بحمرتـه الداكنة كما لو أنّـه يكمّل الحلمة النديّة. كانت الحلـمةُ تلتمس الجرح غالبًا لضمور الثدي فيغدو الجرح والحلـمة أثرًا واحدًا لرغبة ميْتة. لا أدري أيَّ إحساس كان يثيـرُ فـيّ منظرُ الجرح الذي يقارب الثدي، تُـخفيـهِ الحلـمةُ ولا تخفيـه. كان الثديان على غيابـهما الواضح يـجذبانني فـي طراءتـهما، فـي حركتـهما الغريبة، يغيبان ويضمحلّان، يتحوّلان إلى واحة واحدة نديّة وملساء، كنت لا أني أعركها بيديّ، بوجهي، متنسّمًا رائحة الشهوة الباردة، الحارقةِ فـي برودها. رغبةُ الثديين كانت تختلف عن الرغبة التي يثيرها الجرح القاني الدفـءِ. كذلك الاستسلامُ لـهما كان أقلّ احتدامًا من الاستسلام للفتحة الأرجوانية. فالثديان فـيما يـخفقان ويتضاءلان كان الجرحُ الكامنُ فـي الأسفل يلتئمُ أكثرَ فأكثر ويشتدّ وينقبضُ راغيًا رغوه. كان الثديان يفوحان بانطفاءٍ مرتقبٍ لرغبةٍ تشتعلُ وتخمُد دومًا. لـم يعبقِ الثديان برائحة حليب ولا الحلـمتان عبقتا بلون زهريّ بل كمدتا كالندبة. كأنّـها كانت بلا ثديين فـي عينيّ

وفـي ذاكرتي. ربّما لأنّ الثدي هو دومًا وهْمٌ لثدي، ربّما لأنّ الثدي لا يصنعه سوى وهمه. لكنّ ثدييـها كانا خالـيين من وهمهما. هكذا شعرتُ، هكذا احترقتُ فـي نقصانِهما، فـي موتِ الرغبة التي يثيرانها فـيّ ولا تكتمل ولا أكتمل فـيـها إلاّ احتراقًا.
كانت دومًا تخفـي سرّ جروحها ولا تبوح بـه. حين ألحّ فـي سؤالـي كانت تتفوّه بكلمات أغمضَ من الجروح نفسها. كانت تُؤثِرُ غالبًا ألاّ تتحدّثَ عن جروحها. وإذا صدفَ أنْ سألتـها وكانت عارية سرعان ما تُحني رأسها وتلامس جرحها الأسفل بأصابعها النحلة ولا تني تلامسه بنعومةٍ فائقة. ولـم تكن تنبسُ. تحدّق فـي الجرح بـهدوء ولا ترفع عينيـها عنه. فـي أحيان كانت تقول إنّـها كانت لتموت. لكنْ حدثَ ما لـم يكنْ متوقّعًا. دومًا فـي اللحظات الأخيرة يـحدثُ ما لا يكون متوقّعًا. هكذا كانت تجيب حين ألحّ علـيـها. لـم تكنْ تسألُني إنْ كانتِ الجروحُ تشوّه بياض جسدها. ربّما لأنّـها أحسّت كم ولعي شديد بالجروح وكيف ألامسُها بشفتيّ، غيرَ أنّـها لـم تكن تخافُ على جسدها وقد وجدتْ نفسَها فجأةً مأخوذةً بالأوهام. حياتُها كانت كالوهم وفـي صمتـها لـم تكنْ إلاّ كالطيفِ العابر. لـم تكن تبالـي بجسدها كثيرًا، تألفهُ وتحنو علـيـه لكنْ من دونِ أنْ تبالـي بـه. كأنّ جسدَها لـم يكنْ لنفسه، وجِدَ لـها ولـم تكنْ لـه. فـي أحيان كانت تطلّ كجسد فقط، صامتةً عميقة الصمتِ، مقفرةً. لـم تكن تبوح بما يـختلج فـي روحها القلـيلة. يأسرني صمتـها ويعتريني فأصمت بدوري. كانت لـيالٍ تـمرّ بنا نجلسُ فـي صمتٍ كلّي، نبـهتُ كظلّين فـي ضوءِ القمر. لا أدري لِما كان يشعُّ صمتُها ويعمقُ كحفرةٍ. لـم يبقَ لديـها ما تقول رُغم أنّـها طوال أيّامنا ولـيالـينا لـم تقل إلاّ القلـيلَ القليل. أذكر أنّـها أغرقت فـي الكلام مرّة، تكلّمت وتكلّمت وحين صمتت فجأة أخذتـها كآبةٌ هادئة. وجمَتْ، نظرتْ إلـيَّ خاطفة وراحت تحدّق ناحيةَ الجدار، ناحية النافذة. غير أنّني لا أذكر جيّدًا ما كانت تقول. أفكارٌ مبعثرة وكلـماتٌ، أفكارٌ تظلّ مجرّد أفكار، وكلـماتٌ فقط كلـماتٌ كأنّـها لـم تُقْل. كانتْ تصمتُ وتصمت. يملؤني صمتُها فأصمت وأصمتُ. نظراتـها تختصر كلّ كلام مـمكن وكذلك أحاسيسها التي كانت تيْنع فـي داخلـي. شهقات قليلة واختلاجاتٌ ورجفةٌ تلو رجفة. حين نتداخل نغرقُ فـي صمتنا، نَمَّحي فـي البريق العميق لرغبتنا. لا أدري لِمَا تلتبس علـيّ الأوقات التباسًا: لا اللـيلُ لـيلٌ ولا النهارُ نهارٌ ولا الصبحُ صبحٌ، أوقاتٌ متشابـهة فقط. لا لـيلُنا ينتـهي ولا نهارُنا يضع حدًّا لرتابتـه. كنّا جسدين فقط، جسدين عاريين، يلتحمان ويتلاشيان، ينهضان ويغيبان. كان الحبّ وحده يبرّر لقاءنا، غيابنا، كانت الرغبة تـمحونا وتـمحو أوقاتنا، إحساسنا بالأوقات الـمتشابـهة الكامدة التي تـمضي ولا تـمضي.
غير أنّ جرحَ يدِها كان يثيرني أكثرَ ما يثيرني. جرحُ معصمها النافرُ الكامدُ اللون كان يربكُني حين أنظرُ إلـيـه، حين آخذ يدها الـيمنى بملء يديّ لأقبّل راحتـها البيضاء النديّة، لأملأ بـها وجهي وشفتيّ. لـم أسألـها إلاّ مرّةً واحدة عن الجرح العميق الذي يـحتلّ معصمها. أخبرتني القليل القليل من دون أنْ توضِحَ ما حدث. صمتتْ. صمتُّ بدوري. أخذتُ يدها بيديّ وخبأتـها. ألقتْ رأسها على صدري وراحتْ تحدّقُ عالـيًا. آنذاك لـمحت بريقًا يُخضِّبُ عينيـها. صمتتْ وصمتُّ بدوري. لكنّ جرحَ يدِها لـم يفارقني يومًا. كان الجرحُ ذاك كالضوء الذي حاولتُ أنْ أتبعه لأخرج من ظلـمتي الـمقيتة، لنخرج كلانا من حطام الجسد والروح، من موت الرغبة الـميْتة. كان الجرح ذاك دلـيلًا لنا كي نتّجه نحو نهايتنا التي لـم تكنْ تحدث.
حين رحلت لـم تغلق البابَ وراءها. تركت مسربًا صغيرًا لنسماتِ الصيف. قبل وقتٍ كانت تحدّثت قلـيلًا. كنّا فـي أقصى حالاتنا انهيارًا واكتئابًا. كان ماتَ فينا كلُّ شيء وغدونا وحيدين، أعزلـين.

تحدّثتْ قليلًا ورقدتْ في انتظار أنْ يُطلَّ الصباحُ، في انتظار أنْ نفعل ما يجبُ أنْ نفعل بهدوء، أنْ نرتكب خطأنا الجميل سهوًا ونرقد كجسدين متوحّدين كجسد وظلّه. لكنْ حين فتحتُ عينيّ مسّهما الضوءُ كانت غادرت كالطيف ولم تغلقِ الباب وراءها. كان عليّ أنْ أرتبك كثيرًا. فأنا لم أكنْ أتوقّع صبحًا مماثلًا، صبحًا كثيفًا ودبقًا كسائر الصباحات. ربّما نسيتْ كلامَ الليلَ، الكلامَ القليلَ

الذي تبادلناه في أقصى عيائنا. ربما خانت جرحَها العميق، جرحَ معصمها، جرحَ ماضيها. أمّا أنا فما نسيتُه أبدًا. كأنّني لم أستيقظ ذاك الصباح، كأنَّ الصباحَ لم يشرقْ عليّ في ذاك الصباح.
لم أستطع أن أنسى جروحها لفترة طويلة. أقلقتني تلك الجروح كثيرًا. إذ أستعيد صورتها الآن لا أتذكّر غير جروحها. إمراة الجروح كانت إمرأة الجروح، الجروح التي تختصر الجسد فلا يكون إلاّ جرحًا واحدًا. لا أدري لم كنت أسمّي الندبات جروحًا وما زلت وكأنّها لم تندمل. في حين لم يبقَ منها سوى آثار، آثار واضحة. في أوقات غامضة كان يخيّل إليّ أنّ الجراح تنزف فأبصر الدم يخضّب جسدها ووجهي. فأخاف وأخاف. لكنْ، أوهامٌ، مجرّدُ أوهام. في أوقات كانت تعودني الجراحُ فتؤرّقني كهاجس، كفكرة لا تغادرني. تمتلكني الجراح وأحاول عبثًا أن أنساها فلا أقدر. ولم تكن ترغب في الكلام عن الجروح، كانت تخشى أن تتحدّث عنها كي لا تبوح بأسرار قديمة. تكتفي بكلمات مبعثرة، غامضة، أعجز عن إدراك ما تعني. تقول إنّها كانتْ لتموت وإنّ قدرًا آخرَ كان ليكون، وتصمت. غير أنّها لم تكن قادرة على إتمام الكلام. كنت أفترض أنّها لم تمت، كادتْ أن، لكن لم تمتْ. وكنت أشعر في حنايا صمتها أنّ أسرارها أعمقُ من أنْ تُدرك في سهولة. ربّما اندلعت الجروح في جسدها منذ زمن بعيد لا تذكره جيّدًا كما لا تذكر ما حدث. ربّما لم تنسَ ما حدث إلاّ أنّها لا تذكره جيّدًا. لكنّ الجروح لم تكن قديمة جدًّا. حمرتُها الداكنة تؤكّد أنّها ليستْ قديمة.
لا أسمّيها الآن، لم أسمّها أبدًا. إمرأةَ الجروح كانت. إمرأةَ الأسرار. كأنّني لم أعرفْها طوال ما عرفتها، طوال ما غرقنا في صمتنا، في هدأتنا، في اعتكارنا وقتامنا. حين أفتح عينيّ في أحيان أشعر أنّ ما حدث لم يكن إلاّ حلمًا. أحاولُ أن أسترجعَ صورتَها وأعجز، ربّما من فرطِ حضورها فيّ، من شدّة حلولها عليّ. وكم أغدو عاجزًا عن الانفصال عنها في حين ترتجفُ عيناي لدى تلمّس صورتها. كأنّها لم تكن يومًا. يحتلّني وجهها ولا أذكره، يعبرني كغمامة ويتراءى في عينيّ كالضوء. لا أسمّيها الآن. كأنّني لم أسمّها يومًا. إمراة الجروح كانت. لا أدري من أين أتت ولا أين رحلتْ حين لم تغلق الباب وراءها، حين خرجت في اللحظات الأولى للفجر وتركت وراءها ذكريات كثيرة وجروحًا تبزغ في عينيّ وفي وجهي. تركتْ كلّ شيء ورحلتْ. آثارُها لا تزال في مكانها، يداها أيضًا لم تنحسرْ ظلالُهما الكثيرة. رائحة جسدها تملأ الغرفة والسرير والمُلاءة. وعلى النافذة انحناءة ظهرها. كأنها لم تغبْ لحظة. صمتُها هو نفسه وكذلك كلامها القليل الذي كان يتضاءل ويتضاءل. حضورها الكثير التوهّج، تواريها المفاجىء، عاداتها الصغيرة الغريبة... كأنّها لم تغب. لا أسمّيها الآن. أدرك فقط أنّني وحدي وأنّ وحدتي لا تكتمل إلاّ في حضورها. أشعر أنّني كالوحدة التي لا يعقبها سوى الفراغ الرتيب. عاجزٌ تمامًا، مات فيّ كلُّ شيء. لكنْ ما إنْ تفوحُ رائحة جسدها حتى ترتسم في عينيّ كالطيف. كانت رائحتها تمنحني القدرة على التذكّر أكثرَ فأكثر. أتذكّرُ جروحها، أبصرُ جروحها وألمسها بيديّ بأصابعي

وشفتيّ. وتحلّ علـيّ غامضة كالليل، نديّة كالزبد الذي يغرقنا، يرغو ويغرقنا. ولـم أكنْ أبصرُ وجهها. أغمضُ عينيّ وأتوهّج، أغرق فـي رائحتـها، يرفّ وجهها منخطفًا كالبرق ولا أبصره. ربما فقدتُه إلى الأبد، فقدتـه لأنّني بتّ عاجزًا عن تذكاره كما يـحلو لـي. ربّما غاب وجهها وبتّ أهيم فـي عتـمة وجهها بحثًا عن ضوئه الخافـي، عن سمائه. لكنْ يُـخيَّل إلـيّ فـي أحيانٍ أنّني أبصر وجهها وحين أغمض عينيّ أدرك أنّـه وجه آخر، وجه يشبـه وجهها، يلتـمع كالرذاذ ويـخبو كرماد الظلّ والضوء.

وحدي الآن. لـم يبقَ من الأيام إلاّ ذكرى الأيام ومن الوقت سوى ضوء قلـيل يغسل عينيّ بالأوهام. عيناي غاضيتان لا أنظر إلى الوراء ولا إلى جهة أخرى. بياض الأوراق كبياض الـموت الذي يـحدثُ ولا يـحدثُ. النافذةُ مقفرةٌ، البحرُ كالصحراء والزمن غائب. أهو الليل فـي ظلامه أم هي عتـمة عينيّ؟ الحرّ يلفح والسماءُ مغلقة. نهارٌ بطيء يـحلّ كالـهواء الرطب. ضوءٌ كالح لا يتناثر. إحساس عميق بغياب عميق، وانتظار لا يعقبُه إلاّ انتظار. لـم أعدْ أميّز جيّدًا بين لحظة النهوض ولحظة الأفول. ولا أدري إن كنت أستسلـم حقًّا للنوم أم لغفلةٍ تسترقُني. حين أفتح عينيّ أفتحُهما بتعب وأغمضهما كما لو أنّني لـم أفتحْهما، كما لو أنّ العالـم لـم يبقَ كي أراه، كي أجدَني فيـه. أنامُ لكنْ نوامَ الخائفين كما لو أنّني دومًا فـي حالٍ من الأرق الـمتلبّد الثقيل فلا أذكر نومي إلاّ يقظةً وانتظارًا. أتخدّر وتنبسطُ جروحي كالسهل. أُقبل على النهار كما لو لن يكونَ وعلى اللـيل أيضًا كما لو لنْ يكون. ما أصعبَ النهار حين أبدؤه من غير أنْ يبدأ. يـحلّ سأمُ النهار كالحرّ الدبق. فلا أمسي قادرًا على احتـمال الوقت برتابتـه وضجره. نهارٌ قلـيل لـيلٌ قلـيل. لكنّ الوقت لا يمضي. يراوحُ نفسه ولا يمضي. حين أفتحُ عينيّ أتذكّر أنّ علـيّ أن أقضي نـهارًا بكاملـه، لـيلًا بكاملـه، نـهارًا ولـيلًا يـجمع بينهما الخيط الضئيل للضجر والخوف والارتباك. أحاول أنْ أغمضَ عينيّ لكنْ هو الضوء الكامد يوقظني ولا ألبث أن يأخذني مللٌ عميق. أتذكّر أنّني أعيش فـي عالـم لـم يبقَ قائمًا، فـي عالـم يعجز عن تبرير نفسه، فـي عالـم أعجز عن تبرير وجودي فيـه. هجرتُ كلّ شيء وبتّ وحيدًا، عاجزًا تـمامَ العجز. لا رغبة تدفعني إلى ارتكاب أيّ معصية. نسيتُ كلّ شيء ووجدت نفسي مقفرًا ومهجورًا. لا يثيرني القلقُ العميق الذي جُبلتُ بـه كالتراب ولا الخوفُ ولا الجنون ولا العزلة التي حاصرتني طويلًا. كأنّني فقدت عاداتي الجميلة وغدوت بلا ذاكرة ولا حواسّ.

لكنّني أخاف حين أحدّق فـي الأوراق البيضاء أمامي، تأخذني رغباتي الـميْتة وأخاف، أسقط فـي حفرة الصمت، أرتبك وأرتجف. فالبياض الذي هجرني طويلًا وهجر التـماعُه عينيَّ غدا باردًا وخاويًا خواء الجسد الـمتـهالك كالحطام. أغيبُ فـي

البياض الـمرتجف، تغيمُ عيناي وكأنّني لا أذكر شيئًا، كأنّني أبدأ من بياض الذاكرة، من النسيان الذي يغمرني كالطوفان.

لكنّني أخاف حين أعانقُ البياضَ البارد، تحضُرني رغباتي الـميْتة وأخاف. كنت هجرتُ الكتابة وأقفرت ذاكرتي. وكالـميت الذي لا يموت، كالـميْت الذي يدرك غيابـه ولا يغيب، صامتًا، أتأمّل ما يـحدث. فـي غفلةٍ من الزمن وفـي اغتراب عن الـمكان وحيدًا فـي غرفة عابقةٍ بالذكريات، بالألـم الغامض والعتـمة والزرقة. فـي غرفة تردّ إلـيّ دفء جسد جذبتـه الـهاوية وحنينًا إلى جسد آخر لا يغادرني، إلى جسد يـحلّ فـيّ كالضوء ولا أغادره. إنّني الآن عاجز تـمام العجز. أفتح عينيَّ على

الذكريات وأدرك أنّني لـم أبقَ إلاّ ذكرى كائن كان، ذكرى كائنٍ يكون. لا أرغبُ الآن فـي أنْ أغادرَ الغرفة ولا فـي فتح الباب الذي أغلقتُه. فالعالَمُ غائب وأنا غائب عنه أيضًا. إعتدتُ الوحدة وتواريتُ حتّى غدوت كالشبح. تركتُ العالـم ورائي وأمام عينيّ لـم يكن إلاّ ضوءٌ واحد أبصره وأجهلـه، ينثني فـي عينيّ ويفوحُ بين يديّ. ضوءٌ رطب، دافئ الرطوبة يسري فـيّ كالـماء، يغسل الجروح التي لـم تنبثق ويروي العشب السرّي للروح الضئيلة الـمتـهالكة. لكنّني أخاف، يلتـمعُ البياضُ أمام عينيّ وأخاف. الآنَ أصبحتُ وحيدًا تـمامًا، أواجه نفسي بصمتٍ وأواجه العالـم بخوف. أفتقد يديّ وأرتبك، أفتقد عينيّ وأهيم، أفتقد رغباتي وأموت ببطء. لكنْ ما أجملَ الجسدَ حين يصبحُ كالذكرى، حين يفوح بجروحه ويبرق بسأمه. ما أنقى الجسد حين يصبح كالضوء، خاطفًا ومنكسرًا، كالضوء الـمجروح الذي لا ينير سوى نفسه. ما أنقى الضوء الـمُدمّى ينضحُ بـه الجسد فـي أقصى وحدتـه.

تبدأ الكلـمات كالذكرى، كالذكرى التي لا تكتـمل، تظلُّ غامضة ولا تكتـمل. الذكرى؟ ربّما الحنين. الحنين إلى ما كان ولـم يكنْ، إلى ما يكون ولا يكون. إنّني الآن على حدود الصمت أُصغي ولا أكتبُ. أُصغي إلى الصمتِ الذي يـجتازني، إلى الصمت الذي ينتاب الكتابة باستـمرار. قد فقدتُ ما فقدت، حتّى ما لا أملّـه فقدتـه. فقدتُ الكلام والقدرة على الكلام وغدوتُ لا لغة لـي ولا جسدَ كمن يقف أمام الـمرآة ولا يـجدُ نفسه، كمن يفتقد جسدَه فـي الـمرآة. قد نسيتُ ما نسيت. أشياءُ العالـم تركتـها على حدود العالـم واتّجهتُ نحو وحدتي. أغلقتُ الباب وطفقتُ وحدي، أتآكل وأفنى. أنتظرُ ما لـم أنتظره يومًا. أنظرُ فـي جهة واحدة ولا ألتفتُ إلاّ إلى ضوءٍ يـخيفني. لـم تعدْ تثيرني رغبةٌ. خمدتُ كنار لـم تَحِنْ. وعَقِبَ الـموتِ الذي لـم يكتـمل وجدت نفسي كالـميْت حيًّا. خللٌ لـم أكن أنتظره حلّ بي فاختلط علـيّ العالـم وبتّ غامضًا. لا أرى ولا أحسّ ولا أرغب ولا أذكر إلاّ ما أذكره لـمامًا. أضحت ذاكرتي باردةً كجدار ومغلقة. وكأنّني لـم أنهض من موت ما. لا فرحتْ نفسي ولا انتزعني أمل. حتّى رغبتي فـي الـموت انكسرت مذ أقفرتُ وخويتُ. لا ميْتا كنتُ ولا حيًّا. لا نـهوضًا نـهضت ولا رقادًا رقدتُ. أعييتُ لكثرة ما هجستُ موتي. وما جنيت سوى الخوف. أخذتني الرعدة وطفقت أرتجف كمن اختطفتـه الرؤيا ولـم يغمضْ عينيـه. قلتُ أعانق البياض الـمرتجف فـي عينيّ. قلتُ أقبل على الكلـمات علّني أنهضُ من ركامي. وحيدًا كنتُ، وحدي كنتُ، وحدي صامتًا، لكنْ عينايَ مفتوحتان.

أحاول الآن أن أستعيد ذكرى الكلـمات التي فقدتـها، ذكرى جسدي الذي فقدتـه، ذكرى جسدها. أحاول أن أكتب من دون أنْ أحدّد تـمامًا ما أكتب. كأنّني أكتبُ ولا أكتب، أكتبُ ولا أعي تـمامًا ما أكتب! خارجَ الوقت وخارج الـمكانِ أيضًا. كالظلّ أسترخي على مساحات اللغة الـمحتدمة. فـي جحيم اللغة، لا خارجها، أحاول أنْ أكتبَ ما لـم يبقَ لـي أنْ أكتبـه. أنْ أحدّد انتظاري هنا، غيابي فـي اللغة عن اللغة. لا أرغب فـي أنْ أرفع عينيّ. الـمشهد الذي يتكرّر يـجعلني رتيبًا أنا أيضًا. يـجعلُني أسيرَ الخواء الذي يتخلّل ما أراه، ما أكتبـه وأعجز عن كتابتـه. الضوءُ الخافتُ الذي يسكنني يـجعلُني غائبًا، حاضرًا فـي وطأة الغياب الكلـيّ، حتّى إنّني أخشى ألاّ أكون من أكون، ألاّ أكونَ أنا نفسي، من يـجلسُ إلى أوراقه، من يستسلـمُ لأوهامه. لكنَّ الكتابة لا تنهض إلاّ على أنقاض الجسد. موتُ الرغبة وحدَه يُرجع إلى الكتابة معناها الذي فقدتـه طويلًا. يبستْ أصابعي وعينايَ وهنتا من كثرة التحديق. لكنْ لـم أكنْ أحدّق فـي ناحية ما، بل فـي بياض واضح، فـي

عتمة تجاورني، أغرق فيـها ولا ألـمسها. أكتبُ فـي غفلةٍ عن الكتابة، فـي غفلةٍ عمّا أكتبـه. تندلعُ الكتابةُ كالـماء. من جحيمـم الجسد، تلتمعُ كالبرق فـي سمائه. إلّا أنّني أحاول أن أقتل وحدتـي، أنْ أهجس بالفراغ الذي يـحتلّني. أوراقي البيضاء تُخَضِّبُ عينيّ بخوف عميق وتردّ إلـيّ ذكرى موتٍ لـم أمتْه، ذكرى غياب غبتُه طويلًا. أكتبُ فـي غفلةٍ عن جسدي، عن حواسّه التي ماتت. أُقبلُ على الكتابة كمن يـجهل أسرارَها. هي الأصوات الـمخنوقةُ فـيَّ، هي الكلـماتُ التي تـمّحي كالسديم، هي عزلتي، هي الرغبة الـميْتة للجسدِ تـمحو الكتابة، تسبقُ الكتابة وتتلوها. تـمّحي الكلـمات أمامَ عينيّ، تصبحُ ذكرى كلـماتٍ لـم أقلْها، ذكرى كلـماتٍ لـم تكتـمل. كأنَّ الكتابةَ حضور الجسد وغيابُه فـي وقتٍ واحد، الحضورُ الغائبُ للجسد الغائبِ الغارق فـي صمتـه وعجزه وانطفائه.
أكتب الآن من دون أنْ أحدّد أيَّ فضاء للكتابة. ألِجُ الجسد وأغرق فـي جحيمه. أحاول فقط أن أستعيد ما لا أذكره، أنْ أسترجع جسدها وأنْ ألـمسه عبر الكلمات، أنْ أُجسّدَه. لكنّ ما أكتبُه سرعان ما يصبح ذكرى ما لـم أكتبـه. شمسٌ ما تضـيء عتـمةَ عينيّ، أغمضهما ولا أفتحُهما إلاّ على البياضِ القليلِ للأوراق القليلة. ترتجفُ يداي، يعروني الخوفُ الراسب فـي قرارة اللغة. تشتعل اللغة بين يديّ ألتقطها ولا ألتقطها. أكتبُ فقط كي أمحو وجهي، كي لا أترك أثرًا، كي أتدمّر بصمت، كي أغيبَ غيبةً تلو غيبةٍ. أكتبُ فقط من أجل أنْ أمحو بقعة الضوء الذي لـم يبقَ ضوءًا من شدّة تخثّره. أكتبُ كي أقتل ذاكرتي، ذاكرتي التي لـم تعد تذكر، كي أدركَ الرغبة التي لا تعتريني إلاّ ميْتًا، منحنيًا على وهدة الجسد وضوئه القتيل.
صامتًا أغرق فـي صمتِ ما أكتب، فـي صمتِ ما أرى. أحترقُ احتراقَ العينِ فـي ضوءٍ لا تراه. لا أحدّد لونًا للنهار ولا للّيل حجمًا. عيناي زائغتان، جسدي مهيض. أكاد لا أحرّك وجهي ولا ناظريّ. أحاول أنْ أكتب لأقتل الـموت فقط، الـموتَ الذي يصخب فـيّ، لأُشعلَ وحدتي، لأقول ما ينبغي أنْ أقولـه وحدي كما لو أنّني أمام الـمرآة، أمام مرآة تردّ إلـيّ وجهي الذي فقدتـه. غير أنّني لا أدرك ما أكتبه إلاّ حين أكتبـه. والأفكار التي تؤلـمني لا تتجسّد إلّا حين أكتبـها. حين أكتب أدرك حجمَ العالـم أكثرَ وحجمَ الفراغِ الذي يـحتلّني داخل العالـم. خارج الكتابةِ لا يكون إلّا لـيلٌ: خارجَ الكتابة يصبحُ الوقتُ لزجًا، تلتصقُ العتـمةُ فـيّ، يرشحُ بـها جسدي كالعرق.
أكتب الآن كي أحميـها من الـموت، كي أجدَها، كي أخترق غيابـها الذي يملؤني، كي أسترجع رائحتـها التي تعتريني، كي التـمس بشرتـها الرقيقة العابقة بالرغبات. أكتب لأحمي صورتـها فـي العينين، لأُنْقِذَ جسدَها من خيانة الذاكرة. أكتب كي أتأمّل جسدَها الذي يلفحني، كي أنظر إلـيـها بلا تردّد فلا ينكسر ناظري كسهم الضوء. فـي عمقِ رغبتـها ألتـمس رحيقَ الكتابة وفـي مهبّ جسدها أتنسّم الكلـمات التي لا أعرفها. أكتبُ لأدركَ غربتي عنها وفـيـها، غربتـها التي تضيئني كشمس النهار. أكتبُ لأعيدَ إلـيـها جسدَها، جسدَها الذي صرتُه فـي غيابـه وفـي احتراقي داخل غاباتـه. أكتبُ لأجسّد جسدَها الذي كالظلّ، ينهمر علـيّ ولا أراه، أفـيء إلـيـه ولا أعرفه، أشمّه ولا أسِرُه. أكتب لأجعل للكتابة طعمَ جسدها الذي لـم أعدْ أذكره. أكتب لأقتل وحدتي بـها، لأقتل أقصى حالات الوحدة حين أفتح عينـيّ ولا أجدهما.

لـم أكن أحتاج إلى الكلـمات آنذاك. كان جسدها بين يديّ قادرًا أنْ يقول ما ينبغي أن يقال. كنت أكتفـي بالجلوس إلـيـها أحدّق فـيـها كما إلى أيقونة الجدار. صمتُها يـجعلني أرغب فـي الصمت أكثر. كنتُ بين يديـها أدرك لا جدوى الصمت ولا جدوى الكتابة. كنت فقدتُ العالـم وفقدتُني فـي

فقدِه. لم أكن أحدّد ما يعتريني وما يجعلني موحشًا كالقفر. نسيتُ كُلَّ شيء وأغلقتُ على نفسي لا لأكتب ولا لأصمتَ بل لأمضي وقتًا طويلًا أحدّق في الجدار لا أتحرّك ولا أحرّك يدًا ولا وجهًا. كنتُ فقدت عادةَ الكتابة وبتّ غريبًا عنها تمام الغربة ولم أعد أجرؤ على أنْ أجلس أمامَ ورقةٍ بيضاء. بياضُ الورقة يخيفني وكذلك الحبر الداكن المتلبّد كالأفكار التي تلمّ بي ولا تنطفِئ. لم أكن آنذاك أحسّ جدوى الكتابة. كنتُ أكتفي بما أراه وما لا أراه أيضًا ويخطفني. كالشاهدِ الميْت لم تكن تهزّني رغبةٌ ولا يعتريني خوفٌ ولا فرحٌ. كنت غائبًا وما زلت، لا يكتملُ صمتي ولا الكلامُ الذي أقوله ولا أقوله، كما لو أنّني غائبٌ فيه. لم يكنْ يستهويني أمرٌ لأفعلَه، لأخرجَ إلى العالم وأهيمَ فيه. كنت أقضي النهار تلو النهار جالسًا مستسلمًا لنعاسٍ خفيف، ضَجرًا ومهجورًا. لم يكنْ ما يكسرُ صمتي ولا رتابتي ولا الهدوءَ الذي يحتلّني كبحر، كبحر ساكن. باردًا برودَ الميْت، صاخبًا بصمت غريب، لكنْ عيناي مفتوحتان أدركُ ما يحدث ولا يحدثُ من حولي، متراخيًا يلفح وجهي هواء كثيف. كنتُ أصغي فقط لكنْ لا إلى صوتٍ، بل إلى صخبٍ ينتزع جسدي الغائب.

كنت آنذاك في فراغ ما بعد الجسد، فراغ ما قبل الكتابة، في خواءٍ موحش لا حدّ له ولا عمقَ ولا لونَ. في خواءٍ تلتمسه الحواسُّ لدى انطفائها، يتلبّد ولا يظهر. في الخواءِ الطالع من أنقاضِ الجسد كزهرةٍ، في خواء اللاجسد اللامع كالسراب.

لم أكن أنا نفسي. كنتُ الطَّيْفَ الذي لا أعرفه فيَّ، الظلَّ الذي ينفصلُ عنّي كالضوءِ عن عتمته، كاللاجسدِ عن الجسدِ. كنتُ غائبًا وعيناي مفتوحتان، تبصران، لا تبصران، لا تحتاجان ربّما إلى ما تبصرانه: في الداخلِ كان ما ينبغي أن يكون. في الداخل، في الداخل فقط.

أكتب الآن إذن، أغتابُ نفسي وأكتبُ لا أدرك لماذا أكتبُ ولمن. أمام الأوراق البيضاء يزول الاحساس بالزمن، يصبح الوقت أبيض تمامًا من غير أن يفقد رغبته الغامضة التي تجعله عميقًا وصارخًا كالهاوية. أكتبُ فقط ولا أحدّد ما أكتب. الكلمات تتناسل بنفسها وكالظلال تتعاقب، كأعضاء الجسد حين تتداخل وتمّحي. أكتبُ فقط لكنْ خارج حدود الكتابة وكأنني غريبٌ كلَّ الغربة عن كتابةٍ تحتلّني كجسدي ولا أعرفها. أسقط فيها ولا ألتمسها. أغيب فيها كي لا أكون سوى نفسي. كأنّ الكتابة هي المتاهةُ، هي الطريقُ إلى المتاهة. أفتح عينيّ وأجدُني داخل خطوطها عاجزًا عن الخروج، عاجزًا عن البقاء. فما من جهةٍ وما من ضوءٍ ولا سبيل كذلك. عتمةٌ فقط وكلماتٌ تصطفق في سديمِ الموت، في السديم الكامنِ خلف العينين حين تغمضان ولا تغمضان. كنت أحاول أن أبحثَ عن المعنى المفقود للعالم، عن شكله الغائب. كنتُ يُخيّل إليّ أنّني أجد العالم كلّما إلى الورقة البيضاء جلستُ واستسلمت للوهم اللامع المنبثق من مساحاتها. ولم أكنْ أدرك ما جدوى أنْ أكتب وأنْ، في أحيانٍ، تأخذني متعةُ المواجهة: مواجهة الصمتِ الذي يسبق الكتابة ويليها، والسديم الذي تتخبّط الكلماتُ فيه، والموتِ الذي تمنحه الكتابةُ لونًا آخر وتجعله أليفًا صافيًا، وعذبًا عذوبة الليل. سهوًا عن الكتابةِ نفسها أكتبُ. سهوًا عمّا يسبقُ الكتابة أو يعقبُها، عمّا يبرّرها ويبرّر جلوسي هكذا إلى الأوراق البيضاء، مجلوًّا برغبات عميقةٍ أعجزُ عن تحديدها. تسري الكتابة كالخدر وكنهر من الأحاسيس الغامضة تنبثق في جسدي، تأسرني كوهْمٍ يكون، كوهْمٍ لا يكون.

وها إنّي أجد نفسي في غارب وحدتي، أحاول أنْ أقول ما يجول فيّ ولا أقول. كلُّ قولٍ هو كالخطأ المميت. مرتبكًا وعاجزًا لا أطمحُ في أنْ أجبه أيَّ ضَوءٍ ولو خافتًا. آثرتُ ظلمتي وما

ونيتُ أستسلمُ لكثافتها التي تماثلُ ظلمةَ الكتابةِ، الظلمةَ الكثيفة للكتابة، للكتابةِ التي تخترقُ الموت ولا تموتُ، تخترقُ الجسد ولا تتجسّد، تعبق كالرغبة ولا تتحّقق. هي الكتابةُ، هي الرغبةُ في الكتابة، الرغبةُ التي لا تنحسرُ كبحرٍ ولا تأفلُ كبارقٍ وجه يطفو على الماء. إنّني الآن على قلقٍ أرمقُ نفسي وأفتقدُ نفسي. أكتبُ لأكونَ وحيدًا لأدرك أنّني وحدي ولأدركَ أيضًا أنَّ الكتابة لا تكون إلاّ نفسها وأنَّ ما من وجودٍ آخر يسبق وجودها، غيابها أعني.
وما برحتُ غريبًا. أقع في عبثِ الكلامِ ولا جدوى الصمت، في الإحساس الأليم الذي يسبق الكتابةَ ويعقبها، في اللحظةِ التي تبرق كالجرح. كلامي قليلٌ لكنْ ما لا أقوله كثير، ما يسبقُ الكلامَ ويضيء الكلام، ما يقعُ في صمته الشاغر. الحروفُ تنحلّ ببطء والصمتُ يتلاشى. وعوض أنْ يكون الكلامُ وهْمُ الكلام، سديمُه الرطبُ، غموضُ الكلام الذي يرقّ كالسحاب. أشعرُ أنّني غامضٌ تمامَ الغموض، متناقض كل التناقض. قلِقٌ لا تغفلُ فيّ حاسّة ولا تغمض لي عينٌ. لديّ ما أقوله لكنْ لا كلامَ لديّ أقوله. كالعين التي ترى بنفسها، كالعين التي لا تحتاج إلى ما تراه، كالعين التي يحتاجها ما يُرى ليكون. سديمٌ فقط، سديمٌ يكون ليكون، وليكونَ كلُّ كلامٍ خاليًا من الكلامِ، جوهرًا غائبًا لكلامٍ لا يقال.
ما زلتُ أخافُ الأوراقَ البيضاءَ أمامي. رهبةُ البياض هي رهبةُ الموتِ نفسُها. هنا عوضَ أنْ أخرجَ من ظلمةِ الموت أدخلُ في ضوئه. تلتمعُ عيناي بوهج غريب ويتوارى وجهي في انقشاعِ البياض. وما زلتُ أخافُ يعروني البياضُ وأخاف. كالهائم في الصحراء لا يُدرك وجهةً لخطواته. أشعر كُلّما أوغلتُ في الكتابة أنّني أوغل في وهْمِها اللامع. وهي لا تزال كضوءٍ مجهول، تجذبني لا أعرفُ إلى أين وتجعلني خاويًا من فَرْطِ اكتفائي، صامتًا من شدّة ما أصخب، غافلًا من حدّة يقظتي. وكمن يغمُره

الضوءُ فلا يألفه، أعجزُ عن اعتيادِ الكتابة. تُجترحُ الكتابةُ اجتراحًا وتحلّ كالصُدْفة، تحينُ دومًا كثمرةٍ خارجَ وقتها.
في غفلةٍ عن الكتابةِ كمَنْ يجهلُ الورقةَ البيضاءَ وأسرارَها وكيف تصبحُ قاتمةً قتامةَ الأفكارِ التي تنبثق انبثاقَ الروائح، تحاصرُ الهواءَ ولا يدرُكها الهواء. في حيرةٍ أمامَ الوقت الذي يسيل كالشمع كامدًا وكثيفًا. أمامَ الوقتِ الذي أحاول أنْ أسبغَ عليه معنى، أنْ أمنحَه لونًا، أنْ آسره. في خيبةٍ، في ارتباكٍ أمام الوقتِ الذي يجري من دون أنْ يجري وكأنّه يعبر سريعًا إلى لا نهايته. أشعر الآن أنّني أواجهُ نفسي بنفسي، خفيفًا كالظلّ الذي تفاجئه الشمس، غائبًا وغافلًا عمّا يحدثُ ولا يحدث وعمّا أفعل ولا أفعل. الصفحة أمامي مرآة أرى وجهي على مساحتها لكنْ قاتمًا وعلى قدْر من الغبشة. ربّما يُخيّل إليّ أنه وجهي كما أنّ عينيّ عيناي. أرى من دون أنْ يكتملَ ما أراه. لأنّني حين أكتبُ أشعر أنّني أمحو وجهي، أنّني أمّحي، أنّني أستحيل جزءًا من العتمة التي تغرقني، يجرحها الضوء ويجرحني فيلتمع ويبرق دمُ الليل كحلم لم يحمْله أحد. أشعر الآن أنّني في تمام حريتي، لا جسدَ لي ولا اسمَ. حاضرٌ وغائبٌ أرقب الوقت كحارس متعب يموت ولا يحلّ عليه النعاس. وفيما تنحلّ حواسّي ببطء يشتعل فيّ حنينٌ مفاجىء. أبصر نفسي أكتبُ وأكتب، ساهرًا في ضوءِ الجسدِ، في غفلةٍ عن الكتابةِ نفسها.
هكذا كنت أقبض على جسدها، لا أدعه مجرّد ذكرى، أحياه وأكتبه وألتمسُ عبره لا الضوءَ والكلماتِ فقط بل جسدي الذي ينهضُ فجأة من أنقاضه. هكذا فقط كانت تحدثُ الكتابة. لم تكنْ

تحدثُ الكتابةُ إلّا حين تختطفُ الجسدَ لتصبحَ هي الجسدَ، صورتـه وذكراه. لـم تكن تحدث الكتابة إلاّ حين تكون ذكرى موت ماتتـه اللغةُ.
كأنَّ العالـمَ غائبٌ عنّي، كأنّني غائبٌ عنه. أكتبُ خارجَ سمائِه وفـي منأًى عن أضوائه وأحيا كالـميْت مجرّدًا من أيّ إحساسٍ بالحياة نفسها. كنتُ أختصرُ العالـمَ فـي منظرٍ واحدٍ، فـي نظرة واحدة، كي لا يبقى منه سوى ما أراه من خلفِ الزجاج وما أذكره لـماحًا. لا صخبُ العالـم بات يـجذبُني ولا وهْمُه ولا بريقُه الذي ينبثق فـي العين كالسراب وكالسرابِ يـخبو، لا أشواقُه ولا رغباتُه. لأنّني خبتُ خيبتي ومللتُ وما عدتُ قادرًا على جوازِ العتبة. غرقتُ فـي نفسي ورحت أحوك عزلتي خيطًا خيطًا من دونِ أنْ أجرؤ على أنْ أنهي نفسي، على أنْ أنهي كلَّ ما يتخلّجني، كلَّ ما يـجرفني كالـماء. جعلتُ بيني وبينَ العالـم جدارًا، قلتُ لن أبصره، أغيب عن العالـم داخل العالـم. وها إنّي الآنَ غائب حقًّا ولولا أنّني أكتبُ لتضاءلتُ كالطيفِ الذي لا جسد لـه، كالطيفِ الذي غدا ذكرى جسدٍ غائب. غير أنّني ككلامي قليلٌ ويداي واهنتان وذاكرتي عييّة. أُقْبِلُ من النسيان العميقِ الذي يُغرقني وفـي العتمةِ السحيقةِ أتلـمّس لغتي ولا أجدها، أجدها ولا أذكرها، أذكرها وأنساها.
وجعلتُ اللغة أيضًا بيني وبين العالـم، مرآة للّيل، مرآة للجسدِ الوحيد الـمتضائل، للضوء الغائب الذي ينسلّ أمام عينيّ، للشمس التي أفـيء إلـيـها ولا ألتـمسها. جعلتُ اللغة مرآةً داكنةً ورحتُ أنظرُ لا لأرى بل لأعتكر كالـماء وأتلبّدَ كهواء الصيف الدبق.
جعلتُ أكتب لأواجه فقط ما كان ينبغي حدوثُه ولـم يـحدثْ، لأوقفَ موتي الذي لـم يتـمّ، لألـمحَ صمتي أكثر، لألتصق بـه وأغيب غيبتـه. جعلتُ أكتب لأحولَ دون اختناقي حيًّا تلفحني برودةُ العالـمِ وتغمُرني ظلـمتـه.
وغدوتُ أفتقد لغتي كلّما كتبتُ، تلتـمعُ وأفتقدها كأنّني خارجَ اللغة وداخلـها فـي غياب واحد وحضور واحد. وفـي صمتي كنتُ أقولُ أكثرَ ما أقول، أشدَّ ما أقولُ وفـي لغتي أصمتُ أعمقَ ما أصمتُ. رغبتُ فـي الصمتِ كثيرًا ولـم أصمتْ. رغبتُ فـي الكتابة ولـم أكتبْ. وها إنّي، حائرًا كلّ الحيرة، أراوحُ بين صمتٍ يـجرفني وكتابة تدفعني إلى اللـيل الكامن فـيّ، بين صمتٍ لا يـختلفُ عن الكتابةِ وكتابةٍ تشبـه الصمت تـمامًا.
تُرى ألا تكون الكتابة انتحارًا، انتحارًا بلا موت، انتحارًا بالحياة وإقبالًا على الـموت بالحياة؟ أشعر أنّني كلـما أغرقتُ فـي الكتابة أغرقتُ فـي الـموت: شمسٌ تشرقُ علـيّ من وراء الكلام، شمسٌ لا أراها تضيءُ العتـمة الـمتلبّدة فـيّ. أقبل على الكتابة كمن يُقبل على ولـيمة الـموت، على ولـيمة لـم يُدعَ إلـيـها، كمن وجد نفسَه فجأة غريبًا ووحيدًا فـي غمرة الصمت الذي لـم يدركْ سرّه ولا كيفَ يـحلّ. وكنتُ أكتبُ من دون أنْ أعتاد فعلَ أنْ أكتبَ من دونِ أنْ أعلـمَ معنى أنْ أكتبَ. كنتُ أكتبُ كما لو أنّني أتنفّس، كما لو أنّني أختنق. كنت أشعر أنَّ أصواتًا مخنوقة فـيّ تـهبّ فـي لـيلِ الكتابة، فـي لـيل الجسد، ولا تلبثُ أن تخفُت كالنسيم، كانت رغبتي الغامضة تجعلني أمثَل كالـميْت أمام أوراقي، عاجزًا ومحطّمًا كمرآة لا تلتئمُ كسورُها. كانتِ الرغبةُ الغامضةُ تلك، الرغبةُ الـميْتةُ للجسدِ، للكتابةِ، طريقي إلى الكتابة نفسها. كانت الرغبةَ الوحيدةَ التي تسبُق الكتابةَ وتتلوها وتدمّرها. وكانت الكتابةُ كالجسدِ تغدو أنقاضًا لا يلفحها إلاّ هواءُ الروح القلـيلة الـمزهقة.
إنّني الآن فـي خَواءِ الجسدِ، فـي الخواءِ الذي يعقب الجسدَ، فـي الخواءِ الذي يتخلّل الروح. ضاجرًا صموتًا أقبع كالظل منثنيًا على نفسي لا يشرق ضوء علـيّ ولا يمسُّني هواء. وكأنّني لا ذاكرة لـي

ولا حواسّ. ومن فرطِ ما تآكلتُ لم أعد أذكر ما ينبغي أنْ أذكرَه ولم تعدْ رائحة الهواء تثيرُ في ذاكرتي الألوانَ الخاليةَ ولا الصورَ التي تبدو الآن مبهمةً. لم أعدْ أذكرُ أحدًا، كأنّني لم أكنْ ما كنتُ وفي أحيان تعودُني أطيافٌ تظلُّ مجرّدَ أطيافٍ ويخيّل إليّ أنّني أذكر، لكنْ سرعانَ ما ألمسُ أنّني كائنٌ آخرُ خفيفُ الجسدِ، راهفٌ كخيطِ الضوء، رقيقٌ أرقّ من صفحة الماء، غائبٌ وغائبٌ

تمامَ الغياب وعلى حدودِ فجرٍ هادِئ أبصرُه أو لا أبصره، أسطعُ كالمرآة ينعكس على وجهي ضوء خفيّ اشعرُ بدفئه. وفي غمرةِ الحزن البهيّ أصفو وأعلو منخطفًا تختلجني حالاتٌ غامضة وكأنّي في مكانٍ لا يصله صوتٌ، صامتًا ساكنًا سكونَ الميْت. العالمُ في الخارج لا أبصره، العالم في الداخل عالمٌ آخرُ لا المّ به، عالمٌ آخرُ أعجزُ عن إدراكه وعن التماسِه التماسَ اليدين والعينين. وها إنّي تنقبض نفسي عليّ وأغدو يتجاذبني جسدٌ يلتمعُ كالحلم وروح تنهض كالهاوية. وكنت أعتكر وأصفو وكانت حواسّي تخمُدُ وتنقى كالرماد.
الآن أعافُ النوم، ساهرًا خارجَ الليل، داخل الليل. سراجٌ من الوراءِ فقط يُضيء العتمةَ التي من حولي وعلى الزجاج أمامي، على بقعته الملساء، ينعكس نورُ القمر مضيئًا صفحة البحر المستسلم لهدوئه. مثقلًا كسنبلة الحقل أنحني فوق أوراقي، وأوراقي بيضاء بياض الموت. لا تألفُ نفسي النوم، ساكنًا غارقًا في نقاوتي الأولى، في النقاوة التي تجعلني أنسى كلّ النسيان وتشعل فيّ حنينًا غامضًا إلى ما أجهله فيّ. ولم تكن تَغمضُ لي عينٌ، أتأمّل الليل جالسًا إلى الليل، مستسلمًا بصمتٍ للخوف الذي يجتازُني كالهواء، للكآبة التي تسبقُ الضوء الذي يُبَلِّلُني.
وكنتُ في عزلتي تلك لا أرغب إلاّ في ما يكفي من الماء في ما يكفي من الكفاف الكفاف. قابعًا في صمتي لا أرغب في الخروج إلى العالم وضوضائه، مكتفيًا بالسكوت الذي ينتهي في صفاءٍ يماثِل صفوَ الدمعةِ الأولى. مضى عليّ زمنٌ لم أبصرْ فيه أحدًا، لم أحدّث أحدًا. هجرتُ العالم هربًا من العالم حين لم يبق لديّ فيه ما كان ينبغي أنْ يبقى. ولأنّ العالم بات كالذكرى أستعيدُه الآن لا كما يجب أن أستعيده وكأنّني هرمت فجأة وانطفأت ذاكرتي كشعلة واهية. كانَ كلّ شيءٍ قد انتهى في عينيّ وأمسيتُ كالروح التي لا تقتات إلاّ بهوائها.
ربّما كانت العزلةُ حافزي على الكتابة، العزلةُ التي تجعلني أواجهُ نفسي عبر الكتابة حين لا يكون أحد سواي، ممعنًا في تأمّلاتي الشخصية وكأنّني محاط بالمرايا. ولم تكن الكتابة إلّا طريقةً للخروج من حصار المرايا، لاختراق الصور الكثيرة لوجهي وجسدي تلك التي تتعدّد وتتداخل. وكنتُ أكتب لأواجه الوهنَ الذي طالما أصابني ولم أعرف سرّه، الانحلال الذي لا يفارقني والملل العميق الذي يُحبط فيّ الروح فلا أرغبُ ولا أصبو ولا أنفعل ولا أهذّ ولا أبتهج وأظلّ ساكنًا كحجر بارد لم يفارقه حلمه. وكنتُ أقبل على الكتابة كمن يجهلها وكأنّني لم أعتدْ سحرَها ولا ألمها الأليمَ ولا عذابها الراهف والشائك وكأنّني عاجزٌ دومًا عن أسرها، عن إدراكها. وكانت تغيم أمام عينيّ، تصبح ذكرى كتابةٍ لم تُكتب، ذكرى كتابةٍ سوف تكتبُ لاحقًا. وكانت حُلولَ الجسدِ وغيابه في وقتٍ واحد، ضربًا من الوهم الحقيقي الذي يغسل عينيّ ويشرق على المساحة البيضاء أمامي كشمسٍ في منتصفِ الخوف ومنتصفِ الوحدة وكنت أنا الذي متُ ولم أمتْ، متّ موت الكتابة، نهضتُ نهوضها واشتعلت في اشتعالها المريب.

وكنتُ أكتبُ كي أمحوَ كلَّ آثاري، كي لا أتركَ أيَّ أثر، أيَّ أثر يذكّرني بنفسي ويذكّر بي. وكنتُ أكتبُ كي أتدمّر كي أضعَ حدًّا لنفسي، لرغباتي الميْتة، لموتي الذي لا يتمّ، أموته ولا يتمّ.
وكنت أكتب فقط لأقول بوضوح ما أحياه غامضًا، ما يظلُّ غامضًا وأعجزُ عن قوله. لأهتدي إلى النهار بالنهار ولأعرف الليل بالليل، لأضيء الجهة القاتمة من نعاسي، من سهري طوال الليل، من أرقي الذي يخترقني ويجرحني.
ولم تكنْ تستقيمُ الكتابةُ إلاّ حين تقارب الجسد، تنخطفُ كالرعشاتِ الغامضة، كالأحاسيس الدفينة التي تهبّ فجأة. كأنّ الكتابةَ تختصرُ الجسد لتكونَ، لتغتسل من صدئها برحيقه ومن موتها بمائه، بناره الحرّاقة وملحه. وكانت تسري كالخدر الذي يعانق الجسد في لحظاتِ اندلاعه الغريب وتترك الكثير من الألم الذي يماثل ألم الرغبة. كانت ترسم الهاوية التي تعقب الرغبة غالبًا والوحشة السحيقة.
وكانت الكتابةُ جرحَ الجسد، الجرحَ النازفَ للجسدِ النازِف. وكان الجسدُ جرحَ الكتابة، الجرحَ النازفَ للكتابة النازفة.
ولم أكنْ أكتبُ الجسدَ إلاّ لأحياه، لأحياه عبر كتابته، لأوقظه من سباته ولأوقظ نفسي من سباته أيضًا. كتابةُ الجسدِ كتابةٌ للموت، إحياءٌ للموت عبر اللغة وموتٌ للجسد عبر اللغة كذلك. على حدود الجسد كنت ألتمس الضوء وعلى حدود الضوء ألتمس وجهي وعينيّ. غائبًا كنتُ وغائمًا، خفيفًا كالظلّ حين تفاجئه الشمس.
ولم أكن أكتبُ لأبحثَ عن معنى بل عن حضورٍ غائب، عن حضور ألتمسُه ولا أعرفه، أحياه ولا أدركه. فالكتابةُ أعمقُ من أنْ يحدّدها معنىً وأبعدُ من أنْ تأسرها حدود. وها إنّي حيالها نزقٌ أبدًا ينتهبني أرق الليل وسأم النهار وكأنّني عَطِشٌ أبدًا إلى مما لا أعرفه في الكتابة، فيَّ، في الوهم المستحيل جسدًا، في الجسد المنبثق كزهرة. وإنّني إذ أكتبُ الآن يأخذني الألم العميق، الألم الذي لا يخلو من الرغبة وكأنّني لا أكتب إلاّ لألغي الألم. لأعيَهُ وآسرَه. أكتبُ لأنّ الكتابة عقابي الأبدي، صخرتي التي أنوءُ بها، ولأنني حين أكتبُ أكفّر عن الذنوب التي ارتكبتُها ولم أرتكبْها. أكتبُ لأتدمّر داخل الكتابة عوضَ أن أتدمّر خارجها. أكتبُ لأكتشف حاجتي إلى الكتابة، كي لا أشعرَ أنّني أحتاج إليها، كي أُشبِعَ فيّ الإحساسَ الدائم بالنقصان واللاجدوى، كي أملأَ عدم كفايتي، كي أتوهّم أنّني على كفايتي.
وكنتُ أكتبُ لأغرقَ في ذاتي، لأنقطع عن كلّ ما يُحيطُ بي، لأدمّر العالمَ أمامَ عينيّ. وأنظَرَ إليه يتدمّر أمام عينيّ، كنتُ أكتبُ لأكونَ وحدين لأتوحّد بنفسي، لألغي كلّ ما سواي، لأستمتعَ بعزلتي، بالمنظر الفاتن لدى إقبالي وحيدًا على نفسي، على الأوراق أمامي. ليس بياضُ الأوراقِ إلاّ بياضَ الموت، بياضَ اللّذة التي لا تكون إلاّ

كالهاوية عميقةً وملأى. وفي انتظارِ النهار الذي يشرقُ خلفَ ليلِ الكتابةِ كنتُ أرى ما لا يُرى عادة. ولم أكنْ أتوهّم. ولم أكنْ قادرًا على أنْ أستوعب ما يحدثُ تمامًا.
وحدي الآن. بريقُ عينيها يلتمعُ في عينيّ وجسدُها يختلجُ فيّ كما لو لم يغادرْني، جسدُها المتموّجُ كالرّمل، الدافقُ كالضوء، الراعفُ، المرتجفُ كصفحةِ الماء. أنظر إليها الآن وأراها: كأنّها ما غابت. آثارُها لا تزال حيث كانت وما زالت يداها تمرّان حيث مرّتا كجناحي فراشة، ورائحتُها في أرجاء المنزل، رائحةُ ثيابها، رائحة جلدها العابق بالليل، بالضوء، بالدفء. أنظرُ

إلـيـها الآن لا لأراها فقط، إنّما لأراني أيضًا مفعمًا برحيقها العذب، مـمدّدًا فـي ظلّها، عاريًا عراءها الأزلـيّ، مكتـملًا كقمر يطلع من يديـها. أغتسل الآن برحيق غيابـها، صمتُها ينهمرُ علـيّ، أغمضُ عينيّ تحت وابل نثارها وأعانقها عناق الشجرة لظلّها الوحيد.

كانتْ، حين أنظرُ إلـيـها من الوراء تتراءى لـي كامرأةٍ أخرى، كامرأةٍ لـم أعرفْها. واقفةً أمام النافذة أو متّكئة على حافتـها تنظرُ إلى البحر وربّما إلى ما لا أراه لأنّني من الوراء لـم أكنْ أبصرُ سوى جسدِها فـي انحناءتـه القليلة وفـي عريـه الصاخب. كانَ يـحلو فـي عينيـها أنْ تقف عاريةً أمام النافذة وأنْ أحدّق إلـيـها فـي ضوء القمر يتخلّلُ انفراجاتِ جسدها ويغمرُها غمرًا فتلتـمعُ ملءَ جسدِها بعضُ الغلائلِ الـمائلة كالظلال. كانتْ فـي الليلِ الـمقمرِ تألفُ الوقوف أمام النافذة لبرهة تتأمّل البحر ينعكس الضوءُ على صفحتـه الـملساء، أو القمرَ الـمشبعَ بالحنين. كأنّـها تغتسلُ بالأضواء الـمنكسرة، تفوحُ من جلدها الرطب الفائح بالشهوةِ الحرّاقة. كان مرآها من الوراء فـي الليل، فـي الضوء الفضـيِّ الـمنبعث من النافذة، يثيرُ فـيّ رهبةً عميقةً وغامضةً غموضَها. كان لصفحةِ ظهرِها العاري تـموّجاتٌ لا تنتـهي إلاّ نزولًا عند ردفيـها الناعمين اللذين ينشقّان كنصفين ويلتقيان فـي البقعة القاتـمة التي تنزل كالخيط حتى قدميـها. وفخذاها النّقيّتان كانتا على انسكاب هو نفسه الانسكاب الـمريع للساقين. لـم تكنْ تحرّك إذ تدركُ أنّني أنظرُ إلـيـها من الوراء مستسلـمةً لخدر ناظريّ وللغبطة العميقة التي يُشعلـها فـيـهما جسدُها. وكان يمضـي بنا وقتٌ غيرُ قليلٍ فـي حال التجاذب تلك، لا أقتربُ منها ولا هي تدير وجهها نحوي، ولـم أكن أملُّ رؤيتـها ولا تسأم هي بدورها الوقوف أمامَ النافذة منحنيةً قليلًا على حافّتـها. كنتُ أتأمل جسدَها كأنّني أراه لـمرّةٍ أولى. فالضوءُ الشاحبُ الذي يفصِلني عنه يمنحُه سطوةً لا ألتـمسُها إلاّ فـي عينيّ اللتين لـم أكن لأرفعهما عن جسدها. وكان يُخيَّل إلـيّ أنّـها كالطفلةِ فـي انحنائها العذب، فـي كتفيـها الحميمتين، فـي رقّتـها، فـي صفائها الشاسع. كان ضوء القمر يضفـي علـيـها مَسحةً غريبة ويبلّل جسدها بمائه الفضيّ، ماءِ الرغبة الذي يغرقنا كلـينا.

وفـي السرير أحيانًا كانت ترقدُ فـي ضوء القمر الـمنعكس على الـملاءة البيضاء، تتراخى تـمامًا، عارية، مغمضة العينين تحاول أنْ تأسرَ تلك اللّذة التي يُحْدِثُها الضوءُ الفضيُّ فـي ظلام الغرفة. على ثنايا جسدِها كان ينسلّ الضوء انسلالًا ناعمًا من قدميـها الصغيرتين حتّى وجهها. كان وجهُها حين يغتسلُ بالضوءِ يتفتّح كزهرة وحشيّة. وتروحُ تستسلـم لنوام هادِئ، لنعاسٍ خفيف لـيس كالنعاس. كانت تغيبُ غيبةً تلو غيبة ترتسم على ثغرها ابتسامتُها الغامضة والرقيقةُ كالدمعة.

كنّا قرّرنا الاختلاء هنا فـي الغرفة الصغيرة التي يترامى البحر أمامها ولا يضيئها فـي اللـيل إلاّ القمرُ. وكنّا نكتفـي فـي النهار بالشمس الـحرّاقة فيما نستسلـم لـيلًا للعتـمة وظلالـها. إخترنا اللّيل القاتـم ولـم نحاول أنْ نضيئه. كان يكفينا النهار لنرى بوضوح، لأحدّق فـي وجهها وتحدّق فـي وجهي، فـيما يـخفـي اللـيل وجهينا ونغدو فـي ظلـمتـه الشاحبة كائنين عاريين متشابـهين يـجمع ويفصل بينهما جسداهما الحاضران من شدّة غيابـهما.

كان فـي أعماقنا الـموتُ وما كنّا نموت. لـم نكنْ نموتُ ولـم نكنْ نحيا. كنّا نحيا ونموت فـي وقتٍ واحد. كانت الحياةُ تجاورنا وكذلك الـموت، نألفهما معًا ونخافهما معًا. الخوفُ من الـموت أعظمُ من الـموت نفسه. وحبُّ الحياة أيضًا أعظمُ من الحياة نفسها. لكنْ كنّا فـي حالةِ انتظار وربّما فـي حالة ضمورٍ تامّ. لـم نكنْ نرغبُ فـي أمرٍ ما. كانت الرغبةُ ميْتةٌ، الرغبةُ كرغبةٍ فـي نفسها، لنفسها، كرغبةٍ تستحيلُ رغبةً عبْرَ الـموت، تخترقُ الـموتَ ولا تكون إلاّ نفسها. كان الـموت ثابتًا

ثباتَ نظراتِنا وأيدينا. كان كالضوء يعرونا، يعرونا ولا ندركُه. وكنّا نموت من دون أنْ نموت، نحيا الموتَ ولا نموتُه. يورقُ فينا ولا نلمسُه، يُضيء عيوننا ولا نبصرُه. كنّا نخاف فقط، نلتصق جسدًا بجسد ونخاف، لا نهدأ ولا نستسلمُ للسكينة التي تشيعُ كالدفءِ من حولنا. كنّا نخافُ لأنّنا كلّما انغلقنا على جسدينا أغرقنا في الموت الذي ليس هو الموت، في الحياة التي لا تشبه الحياة. وما كنّا موتًا نموتُ ولا حياة نحيا. كنّا فقط جسدين متشابهين من شدّة احتراقهما. كنّا جسدًا واحدًا، لكن في مرآة.
أتحدّث الآن عن النهايات: البداياتُ لا أذكرها جيّدًا. لا أذكرُ الآن تمامًا كيف التقينا ولا كيف انتهى الوقت بنا. الذكريات غامضة، مرتجفة كصفحة الليل. أتحدّث الآن عن النهايات. ما يصحُّ قوله أقوله وما لا يصحُّ أقوله أيضًا. إنّني غائم ومتلبّد وذاكرتي آسِنةٌ كمستنقع. أيامي التي مضت إنّما أتلمّسها بحواسّي الميتة. فالحواسّ وحدها تذكر والحواسّ وحدها تلتمسُ على الرّغم من موتها، موتها الذي لا يُشبه الموتَ. أتحدّث الآن عن نهاياتٍ غامضة، لا أعرف كيف بدأتْ ولا كيف انتهتْ، عن نهاياتٍ لم تبدأ ولم تنتهِ. كانت هي البداية التي لا أذكرُها والنهاية التي أحاول أن أتذكّرها لكنْ بغموض تام. كأنّ ما حدث فعلًا وكأنّه لم يحدث. الآن يمّحي ما كان، الآن يمّحي ما يكون. الآن أكتب لأمّحي تمامًا، لأمحو تلك الظلال التي تراودني، لأقتل الأفكار الكثيرة التي تنبثقُ كحباتِ الضوء في ظلمة عينيّ.

وكنّا خوفًا نخاف، خوفًا عظيمًا، نرتجف في غمرة الهدوء التامّ الذي يرين على عالمنا القليل وعلى أيدينا وعلى جسدنا الواحد. كان الموتُ ينمو في أعماقنا كزهرة قاتمة ننشقُ رائحتها ولا نراها. كان الموتُ ظلّنا وكنّا نَلِجُه لكن بعيون مرتجفة. وغيبةً تلو غيبةٍ كان يطلّ الموتُ علينا كقمر طالع من عناق جسدينا الغائبين، من حشرجة الشهوات المتضائلة كخيوط الضوء. وفي وهدة الجسدين كان يبزغ فجرُه اللامرئيّ ينهمرُ علينا كالرذاذ ولا نغمض عيوننا لأنّنا كنّا فقدنا عيوننا وغدونا نبصر من دون أن نبصر.
وكنّا جسدًا واحدًا، جسدًا واحدًا في مرآة واحدة.
أقول لو قدرنا على الموت لفعلنا، لكنْ ما كنّا نحياه أعمقَ من الموتِ كان وعلى منحدِر جسدنا كنّا نعانق الهاوية ونرتفع كالهواء، نموتُ قُبيل الموت ونموت بُعيده، نشيعُ في بروده، في دفئه أيضًا، وفي خَوائه كنّا نتمدّد جسدًا واحدًا مبلّلًا بالرطوبة شاحبًا شحوبَ الضوء. وكنّا نرقد في خيبة أنْ نستيقظ لكن بعيدًا عن العالم وصخبه. لو قدرنا على الموت لفعلنا، لكنْ كأنّنا خفنا، لا الموتَ ولا العزلةَ ولا كآبةَ الانفصال بل الخوفَ نفسه، الخوفَ العظيم الذي لا وجهَ له، الخوفَ الذي يجعلنا نرتجف ونهجر جسدينا في صورتهما الواحدة. وفي احتضار النهار كنّا نحتضر ولا نموت، نحتضرُ ببطء، مغمضةٌ عيونُنا، مفتوحةٌ عيونُنا. ولدى نزاع الليل نحتضر أيضًا بهدوء ليس سوى هدوء اللّيل. ولم يكن النهار لينطفىء عن آخره ولا اللّيل ليشتعل. ولم نكن لنموت موتًا أخيرًا، كنّا نحتضرُ احتضار النهار واللّيل لا يموتان ولا نموت ولا نعلن إلاّ جسدَيْنا، إلاّ جسدنا في مرآة غيابنا.
ولم أستطعْ أنْ أعيَ الوقت ولا أن أنتبه لوقعه الرتيب. كنّا داخلَ الوقتِ، خارجه. وكان الوقت على جموده يمضي ببطء شديد. ولم نكنْ نلتمس الزمنَ إلاّ عبر حركة الضوء والعتمة وما يتخلّلهما من اغتلام شفقيٍّ ومن حمرة كامدة هي حمرة الشمس في غيوبها. ولا ندري إنْ كنّا نحيا

حقًّا ما نحياه وإنْ كنّا نرى ما نراه، وإنْ كنّا بالفعل ما كنّا، في عالمنا الضيّق الذي تمنحه النافذةُ القدرة على أنْ يكون عالمنا. فقدنا كلَّ شيء وغدونا لا وجه لنا ولا جسدَ، غدونا كجسدٍ لم يتجسَّد، كروحٍ هائمة في صحراء، لا يأسِرُنا الهواءُ الذي يمازجنا ولا يحدّدنا الضوء الذي يتداخلُنا. كنّا على وضوحٍ يماثل وضوحَ الضوءِ وعلى قتامةٍ تماثل قتامةَ الظلام. كنّا نتداخل حتى لنصبح جسدًا واحدًا، ضوءًا واحدًا ظلمة واحدة.

ولم أكن أسمّيها. كانت أكثرَ من امرأةٍ تُسمّى. كانت امرأةً فقط، إمرأةً لا تحتاجُ إلى ما يسمّيها، إلى ما يحدّدها كامرأة وينقذها من غموضها، من غموضي. هكذا كانت من دون اسم، من دون ماضٍ ومن دونِ حاضر. كانت تفتقدُ كلّ ما يؤكّد وجودها، كلَّ ما ينفيه. ولم أحتجْ أنْ أسمّيها، لم تحتجْ هي أن تسمّي نفسها. ربّما نسيتُ الآن اسمَها، ربّما ما طفقتُ أجهله، أجهل اسمها كي لا أجهلها. لم أكنْ أسمّيها كي لا أفقدَها. هكذا تعودني الآن وكأنّها لم تغادرني وكأنّني لم أغادرْها. تعودني من دون اسم، كامرأة تعودني، كظلّ لامرأة كانت. ولم تكنْ تحتاجُ إلى ما يسمّيها لأنها أكثرَ من امرأة كانت وأقلّ من امرأة غامضة ككائن حائر الأنوثة، شديد الشفافيّة، مجروح بطبيعته، ككائن لم يكنْ إلاّ نسغًا لكائن غائب. ولم تكنْ تحتاج إلى ما يسمّيها، إلى ما يحدّدها في عينيّ وذاكرتي. كانت امراة وَهْمَ امراةٍ وما برحت تُحلّ عليّ وتأسرني فيما أعجز عن أسرها. تفوح من يديّ ولا أذكر إلاّ رائحتها. كانت رائحتها شديدة الفتنة كمرآها. وكذلك ملمسُها الرقيق الذي سرعان ما يشعل فيّ رغباتي الضئيلة. الآن أشمّها فقط ويخيّل إليّ أنّني أتحسّسها. رائحتها تبقى أمّا وجهها فيغيب. لم يبق سوى تلك الآثار التي تحييها فيّ، في أعماقي الميتة. رائحتها تردّها إليّ كما لو أنّها لم تغب. أتنسّمها كثمرة، أشمّ جلدها النقيّ وبيديّ الواهيتين أسترجعها، أُلامس بشرتها الفائحة بحبيبات الماء، بقطرات الشهوة. ولا أسمّيها الآن، نسيت اسمها من فرط ما امّحتْ فيَّ وغبتُ فيها، من شدّة ما تشابهنا وتداخلنا وغدوتُ بلا اسمها وغدتْ ظلًّا مرتجفًا في ذاكرتي التي لم تعد تذكر. الآن أستعيدها بيديّ، شميمها يملؤني وأذكرها. وعلى متّسع البياض أُغدِقُ بياضَها، بياضَها اللامحدود الذي كنت أغتسل في صباحه وفي ليله ينهمران عليّ. الآن تنضج في عينيّ، في منتهى غيابها، في منتهى حلولها فيّ كرائحةِ امرأة شهية، كملمس امرأة تصخب بالشهوات وتنضَحُ بهدوء الموت. ولم أمسّها يومًا كي لا أفقدَها، كي لا أفقدني، كي لا أفقدَ رائحتها الغامرة. الآن بات جلدها ذاكرتي الوحيدة، ذاكرتي التي لم تمت، ذاكرتي التي لا تَذْكُر إلاّ عبر امّحائها. الآن شمًّا أشمّها، أبصرها بغموض. وجهها لا يتَّضِحُ في عينيّ ولا عيناها الجارحتان ترنوان إليّ ولا نظراتها الرقيقة المنسحقة تحيط بي.

رائحةُ جسدها هي نفسُها رائحةُ جسدِها، وجهُها غابَ في عينيّ، وفي أحيانٍ أجدُني عاجزًا عن استرجاع وجهها الذي غاب. وكأنّني أبصرها فجأة من دون وجه، من دون وجهها الذي كان، وجهها الذي لم يكن إلاّ لأنساه، لأذكُرها وأنساه. وحين أعجِزُ عن استرجاعه تمامًا أُغمضُ عينيّ وأغيب غيابه. رائحةُ جسدها تعيدُها إليّ. أغمضُ عينيّ وأتلمّسُ جلدَها وكمن فقدَ ناظريه أتحرّق لرؤية وجهها، أمسّه ولا أراه، وكمن ينزل سماءه أنزل غيابها أخْتَرِقُها كالطّيف وألتَمِعُ بها. لو كان لوجهها رائحةٌ لما غادرَني أبدًا. لكنّه كالظلّ الذي يتراءى ويختفي ولا أقدر على أسره. كأنّها حقًّا بلا وجهٍ كانت. أذكرُ حركةَ عينيها ولا أذكرُ عينيها. أذكر حنانَهما القاسي ورقّتهما الجارحة، أذكر خضوعهما، حيرتَهما غيرَ المتناهية. أذكرُ حجم فمِها ولا أذكر فمَها، لا أذكر

شفتيـها تـمامًا لكنْ أذكر امتلاءهما. تحضرنـي وتغيبني بلا وجه ولا عينين، بجسدها فقط تنهمرُ علـيّ، بجسدها الذي تأسره رائحتـه، رائحتُه الغامرة من شدّة

فوحها. وكمن يـحدّق فـي الـهاوية كنت أنظر إلـيـها، أنظر ولا يكتـمل ناظري ولا مرآها الحارقُ كالشمس. فـي فَقْدِها فقدتُ كلّ ما فقدت: الآن فقط أسترجعُ ذكراها، أكتبـها لأسترجعها وأكتبُ لأكتبـها فقط، لكن بحسرة من يـحسّ أنّـه لـم يبقَ لديـه ما يفقدُه. تُرى هل كانتِ امرأة أم وهْمَ امرأة، امراة من دون وجهٍ أم امرأة بوجه يتوارى ويبرقُ كالظلّ والضوء معًا، حين يصبحان وهمًا واحدًا لظلّ وضوء يتجسّدان ولا يتجسّدان.

غيرَ أنّ وجهها كان حين تتـمرأى فـي عينيّ يطفو على ماءِ عينيّ كزهرة غريبة. كانت تتـمرأى فـي عينيَّ لا لتبصرَ وجهها بل لتغمضَ عينيـها وتفتحَهما على ضوءٍ كان يـختطفُ جفنيـها ويـجعلـهما يرجفان رجفًا غامضًا. وكانت تتـمرأى فـي عينيّ، يغرق وجهُها فـي مائهما ثم يطفو كطيف ضئيل لوجه مغمض العينين. لـم تكنْ تفتح عينيـها فـي عينيّ لأنها لـم تكنْ تحتاجُ لأنْ تبصر. فالعتـمةُ كانت تلفحها وفـي عمقِ العتـمة الفائحة فـي عينيَّ لـم تكنْ لتبصر، كانتْ فقط تأسر الضوءَ، الضوءَ الغريب الـملتـمع فـي السرّ.

وكنتُ فـي عينيـها أواجهُ نفسي بنفسي وحيدًا وحدةَ الظلّ. وكنتُ كلّما حدّقتُ فـي عينيـها أنغلقُ كصَدَفة. أغرقُ فـي نفسي ولا أخرج. وتحتَ وطأةِ ناظريـها كنتُ أرتجف وأخاف إذ تحضرنـي نظراتُها فجأة، نظراتُها الغريبة التي لـمْ أستطعْ أنْ أحتويَها، نظراتُها التي ما برحتُ أذكرُ رقّتـها الجارحة وطغيانها الـمفاجىء. خلفَ تلك النظرات كان يتراءى لـي ما أجهلـهُ، ما أدركهُ وأجهلُه فـي الوقت نفسه. ربّما كان يـخيّل إلـيّ أنّني أرى ما لا أحدّده بوضوح. لكنّ نظراتـها النادرة تلك كانت قاطعةً كلحظات غامضة، ومن خلالـها تبدو امرأةً أخرى، إمرأةً أجهلـها. وكنت فـيما أحدّق فـيـها تغيب عيناها. تبصرني وربّما لا. وحين تنكسر نظراتُها تلك، النظراتُ الخاويةُ والـملأى، كانت ترتسمُ على وجهها ظلالٌ خافتة لـهدوءٍ عميق، لاختلاجٍ تحياه فـي عمق جسدها، لصمتٍ كانتْ ترغب فـي أنْ تخرج منه. وكنتُ فـي عينيـها أواجه نفسي وأنثني علـيـها. كنّا نواجه أنفسنا بأنفسنا وفـي عيوننا الصارخة من شدّة خَوائها نلـمح أطيافًا، أطيافًا فقط، لوجوهٍ وقاماتٍ، وربّما لأرواحٍ هائمة فـي لـيل الصمت، فـي لـيل النسيان الذي لا حدّ لـه.

لستُ أذكرُ جيّدًا ما حدثَ آنذاك وما حدثَ من ثمّ لا أذكرُه جيّدًا أيضًا فيما الآن أرقب أوراقي البيضاء. الزمن غائب غيوبـه الأول، غيابـه القديم ولا أدري أفي الحاضر أكتب أم فـي ماضٍ أجهلـه. إنّني أكتبُ فقط. وما أكتبُه قد يكون الوهم الوحيد الذي يمكنني أنْ أقولـه. أشعرُ الآن أنّـها تستيقظ فـيّ كما لو لـم تغبْ مغابـها ذاك، كأنّـها حلّت كالظلّ فـيّ وبتّ لا أعرفُها من كثرة ما عرفتُها. كأنّـها لـم تفتح الباب ولـم تترك ضوءًا وراءها ولـم يـختطفها النهار الذي اتّجهت نحوه فـي أوّل الصبح، فـي الصبح الباكر لـموتنا الذي لـم يـحدث، لـموتنا الذي كان لـيحدث. تستيقظُ الآن من رقادي وتسبقني إلى النهار، إلى ضوئه الخافت، وإلى عزلتي تركن كظلّي الذي لا أراه. أمام عينيّ، على الأوراق البيضاء تتضاءل بـهدوء كلّي، أحاول أن آسرها وأعجز. أغمض عينيّ لأتذكّر ولا أفتحهما إلاّ على بياض الأوراق، على البياض الدافىء لصمتي، لـموتي الذي لا يـحدث. إنّني أشمّها الآن فقط، أشمّها فـي عينيّ، فـي البياض الذي يأسر عينيّ، رائحتُها التي لـم تغادرنـي هي كلّ ما أملكُ الآن. رائحتُها تردّها إلـيّ وأحاول أن أستعيدها، أن أغسل أوراقي

البيضاء برائحتـها، بالرائحة الآسرة لجسدها الـمزبدِ كالبحر. أتنفّسُ الآنَ جروحها، جروحَها الـمفتوحَة كزرقة البحر. رائحةُ جروحها تردّها إلـيّ فأغتسل برحيقها، أغتسل وتحترقُ أوراقي بماء جروحها.

كانتْ لجسدِها، أذكرُ، رائحةٌ كرائحةِ الناردين. رائحةٌ لـم أكن قادرًا على أن أحدّها من شدّة غرابتـها وغرابة فوحها. رائحةٌ فائغة كأرج الحقول، كانت تفوح وتـملؤني وأظلّ عاجزًا عن تحديدها. وما برحتْ تفوح تلك الرائحة التي كانتْ وما برح جسدي ينضحُ بـها كما لو أنّ جسدها ينضحُ بـها. وما زلتُ عاجزًا عن احتوائها كعطر قديم، كأريج غابرٍ لجسد غاب ولـم يغبْ فـي عينيّ وفـي ملءِ يديّ. ولـم تكن تترنّق، تلك الرائحة الزكيّة الغريبة. ولـم يكن يعرها العرق الذي كثيرًا ما بلّل جسدينا، ولا الرشوحاتُ الصافية التي كانت تنسابُ بـهدوء وتغمرُنا ونغرقُ فـي نداوتها. وكانت لرطوبتـها الدافئة رائحة كرائحة جسدِها أيضًا وكذلك لعرقِها الذي كان يرشحُ بـه جسدُها. كانت رائحتُها وما برحت، رائحة الرغبة النقيّة التي تـهبّ كنسائم الصيفِ وما زال ماؤها ماء الرغبة، الـماءَ الغامض للرغبة الغامضة التي لـم تكن تنتـهي ولـم تكن تكتـمل.

وكانت تلفحُني رطوبَتُها التي يبوحُ بـها حياؤها الـمتفّتح كزهرة، الـمنغلقُ كصَدَفة. حياؤها القاتـمُ الذي يثير فـيّ شغفًا وحنينًا إلى ما لا أذكره. كانت الرطوبة دافئة كالنسغ الداخلـي، صافـيةً ولزجة. ولـم يكنْ ما يعكّرها أبدًا وما يكدّر فوحها الغريب. وكنت أتنسّمها كرحيق الرغبة، كأديم الجسد الـمختلج بذاتـه، بغيباتـه، الجسد الآخر. كانت الرطوبة تلك، ماء غيابنا ويقظتنا ماءنا السرّي الذي نبتـهج بـه. كانت الرطوبة تلك رشحَ جسدينا، يبتلّان ويتداخلان ويغيبان مَغيبـهما الداخلـي. ولـم يكنْ ما يعكّرها ويعكّر رائحتَها النقية الفائقة النقاء. هي ماء الجسدين حين يلتـمس واحدُهما الآخر ولا يـجده، أو حين يلتـمسه ويـجدُه. رطوبةُ الجسد حين يلتـمس جزؤه جُزأهُ ويمّحي فـي غَبَشِ الرغبة، فـي نقصانِها. ولـم تكنْ تغادرُني رائحةُ الرطوبة تلك كجسدها الذي لـمْ يغادْرني. كانتْ رائحة جسدِها ضوئي إلى جسدها فـي حضوره وفـي تلاشيـه. كانت رائحةُ الجسد تُعيدُ الجسدَ من غيابـه إلى غيابـه. تغسلُه من صدأ غربتـه. فإذا غابَ الجسدُ ظلّت رائحتُه، رائحتـه التي هي ذاكرةُ بقائه، ذاكرةُ غيابـه، رائحتُه التي هي جُرحُه الداخلـيّ، جرحُه الذي ينزفُ ولا ينزف.

كانت جسدًا بين يديّ، أكثرَ من جسدٍ، أقلَّ من جسدِ، جسدًا فـي جسدٍ، جسدًا

داخل جسدٍ، بلا جسدٍ. وكانتْ من فرطِ ما يشفّ جسدُها تغدو ظلًّا لجسدٍ غائب، لجسدٍ أذكرُه ولا أذكرُه، لجسدٍ كان ولـم يكنْ. كانتْ تغيبُ غيباتـها، تسترسلُ فـي نعاسٍ شفيف، مُغمضةَ العينين، مفتوحةَ العينين، يـخالجها فرحٌ لـيس كالفرحِ وكآبةٌ لـيستْ كالكآبة. كانت تنامُ من دونِ أنْ تنام، يتلاشى كلّ شيء أمامَ ناظريـها وتظلّ تبصر لكنْ أطيافًا، أطيافًا تخفق لـها عيناها فتنفتحان وتنغلقان بـهدوء. كانت تنامُ من دونِ نومٍ متوهّجةً ومسترخيةً فـي وقتٍ واحد، منخطفةً انخطافًا غريبًا. آنذاكَ كانَ يصفو وجهُها حتى لتغيب قسماتـه القليلةُ ويستحيل طيفًا لوجهٍ رائق يطفو على ماء رغبتـه.

لـم يكن جسدُها يشتـهي ضدّ نفسه بل استقام بنفسه وأضحى جسمًا مهيّأً لغيابـه وانطوائه، للرغبة التي تنزفُها جروحُه. ولـم يكنْ ما يشوّه الجسم إذ يشفُّ ويرتعش كالضوءِ مختلجًا برحيقه الداخلـي، منخطفًا إلى أقصى غيابـه، إلى أقصى حضوره. وكان يُغدقُ الجسدُ نفسَه لـينقطعَ إلى نفسه فـي الجسد الآخر، لـيصبحا جسمًا واحدًا يُغدق حواسّه لـيفتقدَها.

ولـم تكنْ إلاّ جسدَها، جسدَها الذي كان ولـم يكن، جسدَها الـمتواري من كثرة ما حان ومن شدّة ما أينعت هي كثمرة لا تذكر شجرتـها. وكادتْ من فرطِ ما عرفت جسدها تصبح بلا جسد ومن فرط ما جهلتـه تُمسي بلا جسد أيضًا. كأنّـها كانت دومًا على حياد منه، غارقة فـي ضوئه، مشبَعةً برحيق غيابـه ورطوبة اشتعالـه. تسبقُه إلى فراغه، وإلى فراغها يسبقها، تـمتلِئ بـه امتلاءها برغبتـها الأثيرة ويمتلئُ بـها حتى ينبسطَ كاللّيل. وكانت تقبل إليـه فـي أقصى وحدتـها وتغادره كمن يتوارى فيـه. يصبحان كلاهما نسغًا دافئًا لغياب واحدٍ وامتلاء واحد. حين أدركَتْه باتت على حيادٍ منه، حين عرفَتْه أدركتْ وحدتـها وراحت تتآكل ببطء، تنغلقُ بـهدوء على نفسها وعلى جسدها. ولـم أكنْ أعرفها كما أعرفها الآن ولـم تكنْ لتحضر فـي عينيَّ كما تحضرُ الآن وكما حضرت فـي الأوقات الأخيرة من صمتنا، من موتنا، بلا جسدٍ ولا جروحٍ ولا وجه. غائبةً لكنْ من دون غياب، حاضرةً لكنْ فـي صمتٍ تامٍّ. غادرَها دفـءُ نومها والبردُ الصباحيّ الذي كانت ترتعش لـه. وأمستْ لا تعرفُ الدفـءَ ولاالبرودَ ولم يعدِ العرقُ يبلّل جلدَها ولا تعتريـها النداوةُ الزكيّة. وفيما أستسلـم أحيانًا لسطوة نعاسها كنتُ يُخيّل إلـيّ أنّـها لـم تعدْ هنا ولا هناك ولا فـي مكان آخرَ وأنّـها على رقّتـها الغريبة أقربُ إلى النسمة التي لا تنسمُ، كالروح تشيع فـي الـهواء ولا تظهر. وكنتُ ألتـمسها فـي عينيّ حين أغمضـهما وأَحِسّ ظلّها ينكسر على راحتيّ وأشعرُ أنّـها تجتاحني كهبوب خافت وأنّني أمتلـيء بضوئها الخاطف. آنذاك كانت غيبةً تلو غيبةٍ تغيبُ من دون أنْ تُحدِثَ جلبةً ومن دون أنْ تتركَ أثرًا لغيباتـها وللجروح التي تحفرها فـي عمق الصمت، ملءَ عينيّ اللتين تـمتلئان بـها. وكانت تصفو صفاءً غريبًا. تترامى تجاه ناظريّ كزرقة السماءِ لا تنازعُها غيمةٌ، وجهها كمرآة مصقولة تعكسُ مغيبـها. آنذاك كنتُ يأخذُني الخوفُ فأخافُ وأَحِسّ أمام عينيـها الـمغمضتين أنّني وحدي بـها، أنّـها وحيدة بنفسها، أنّـها ذكرًا وأنثى كانت، أنثى وأنثى، أنّـها كانت جسدًا بلا جسد، جسدًا داخل جسد.

وهي إذ تنامُ كانتْ فإنّما من دونِ نومٍ تنام وكنتُ أسهرُ على غفوها الرهيفِ الناعم، أقضي هدأةً من اللـيل أرقب سُباتـها اللطيفَ كالنّسمة. ولـم تكن تَتَنَهَّدُ ولا تحدثُ جلبة، مسترسلة ومنخطفة، منفرجِةَ الوجهِ وعلى شفتيـها الرقيقتين الفاغرتين لـم تكنْ تكتـمل ابتسامتُها الغريبة. آنذاك لـم أكنْ قادرًا على النوم. كانتْ هي تسبقُني دومًا لتنامَ قليلًا وتستغرق فـي نعاسها الرقيق. كنتُ يـحلو لـي أنْ أحدّق إليـها فـي اللّيل الـمشبع بضوءِ القمر، إلى الشعاع الفضيّ يرتـمي عليـها ويغمرها بشدّة حتّى لـيخيّل إلـيّ أنّـه يسيل من جسدها. وكانت هي تتـمرّغ فـي الضوء بـهدوء كما لو أنّ الضوءَ يـخترقُها ويُغرقُها كالـماء وكانتْ تـمسحُ حينًا عينيـها الـمغمضَتين بيدها من دون أنْ تستيقظ تـمامًا مُغربةً فـي إغفائها الأرقّ من الغمام. كان للقمر على وجهها التـماعٌ يـجعل وجهها هادئًا هدوءَ الـموت ساكنًا ومنقشعًا كأوّلِ النهار. وكان وجهُها يَلْطُف فـي عذوبة الضوء ويصفو وعيناها الـمسبلتان تفوحان برغباتٍ غامضة يشعلـها نعاسُها الجميل وانخطافها. وكانت شفتاها كأنما تَرْشُفان الضوء وتنضحان بـه. وفـي أحيان كانت تـمتزج فـي الضوء حتى تتعرّى من جسدها ومن وجهها، كانت تـمّحي فـي الضوء حتّى لتصبح بقعةً لـه، بقعةً لضوءٍ ينبثق من نفسه.

آنذاك لـم يكنْ يثيرُها شيء ولا يفرحُها شيء ولا يؤلـمها شيء. كالطيف تتراءى وتنخطف. وفـي شدّة انخطافها يشفّ وجهُها حتّى لا يبقى لـه أثر. وكان محجراها يمتلئان حتى لـيخيّل إلـيّ أنّـها من دونِ عينين. وكان وجهُها يُمسي كالزبد، تغشاني رطوبتُه ولا أبصرُه. يـخترقُني ولا أبصره. يـحتلّ وجهي ولا أبصره. كان وجهها أصبح وجهي وعيناها عينيّ لا أبصر بـهما سوى ما

ينخطف ملءَ العتمة التي لا تشبه العتمة، ملء الضوء الذي يُراقُ من تلقائه، كالدم، كالماء الذي ينبجس في السر. وكانت في غيبةٍ تلو غيبةٍ تلتمّ على نفسها وتكبّ بوجهها وعينيها متضامّةً كشجرة حانيةً على جسدها المُتَفَتّح برغباته، على جسدِها المحترق بمائه. ولم يكنْ يعتريها حينذاك خوفٌ ولا يعرو صفاءها رنَقٌ. غائبةٌ عن كلّ ما يحيط بها، غارقةٌ في نفسها منقطعةٌ إلى صمتها، تنحلّ فيه انحلالَ الثلج في الماء. ولم أكنْ قادرًا على احتوائها. كنتُ يخامرني الشكّ أنَّ وجهها وجهي وأنّ عينيها عيناي وأنّنا كلينا غائبان ويَقِظان غيبةَ ما قبل الغيبة، ويقظةَ ما قبل اليقظة. وكنتُ أتلمّس وجهي كأنّما لأوقظَ وجهها، لأستيقظَ من سطوة وجهها عليّ.
كانت تغمضُ عينيها لتحفظَهما، لتردّ عنهما كلّ ما يهدّد ضوءَهما. ولم تكنْ تُؤثِرُ أنْ تحدّق في جهة واحدة. تنظرُ بعينيها لا لتنظرَ، ترمي نظراتها بصمتٍ غيرَ مبالية بما تنظر ولا تنظر إليه. وفي أحيانٍ كانت تتغامضُ، تحرّك جفنيها بسرعة

فيرفّان رفًّا رهيفًا. وإذا ما تلاقت نظراتنا سرعانَ ما تنكسر فتُغمضُ عينيها بخفر لذيذ وأُغربُ أنا في التحديق إليها بينما تستغرق هي في إغماض عينيها حانية، متّكئة على ركبتها. وكانتْ من حين لآخر تنظرُ إلى بياض الملاءة في السرير الذي لم يكن يحتويها. كانت في السرير تجلس وتتمدّد متقلّبة من جهة إلى جهة، مُرخيةً يديها منثنية على نفسها وكأنّ خوفًا يعتريها فتلتصق بجسدها حتّى تغيب فيه. وكانت تنهضُ في أحيانٍ لتنظرَ من النافذة إلى زرقة البحر متلاشية في زرقة السماء. أمام النافذة كانت تمكث وقتًا تحدّق من غير أنْ تبالي بالمنظر الذي تحدّق فيه.
وكانت في أحيان تعصِبُ عينيها كي لا ترى، كي تحلّ الظلمةُ ملءَ عينيها فلا تبصران. وكانت يطيبُ لها حين تضع المنديل الأسود على عينيها أنْ تتلمّسني تلمّس مَنْ فَقَدَ بصرَه ولم يبقَ سوى يديه. فتروحُ تلمسُني بيديها، براحتيها بأصابعها فيتراءى لي أنّها لتعرفُني هكذا أكثرَ، لتبصرُني أكثرَ. كانت تحسّني بيديها من غير أنْ تراني، تبصرُني من غير أن تبصرني فلا تفقدني إذْ ينحفرُ وجهي في عتمة يديها، في اللمْسِ الذي كانت تلمسُني إيّاه. هكذا غدوت كأثرٍ محفور في باطنِ يديها، كجرحٍ من جروح جسدها. كانت آنذاك تشدّني بعنفٍ لم تكن تُبديه حين تفتح عينيها، تشدّني حتّى لنتداخل ونصبحَ جسدًا واحدًا تُحيط به عتمةٌ واحدة. ولم أكنْ أدركُ سرَّ ذلك المنديل الأسود الذي تواري عينيها به. كانت تحتفظُ به دومًا ولا تتخلّى عنه. في النهار تعصِبُ به عينيها، في وضح النهار وفي الليل، في دجوّ الليل حين كنّا نختلي جسدًا بجسدٍ. كانتْ حين تواري عينيها تغيب عن العالم وتحضرُ فيه حضور الظلّ. تُطفِئ عينيها وذاكرتها وتمحو كلّ ما من حولها مستغرقةً في عالم من الأصوات والروائح، في عالم مُستعر تؤجّجه يداها حين تتلقّفان ما تلمِسان بعنفٍ ورغبة وكأنّهما قادرتان على إدراك كلّ شيء، على اختصارِ كلّ شيء.
كانت تخاف أنْ يختطف الضوء تلك الأحاسيس التي تلهج بها وأنْ يرفعها من لجّة الظلام الذي يخدّر حواسّها أيّما تخدير. تغلق عينيها لتشمّني أكثر، لتشمّ جسدَها، لتختلي به، بجسدي فلا يحولُ دوني ودونها ضوءٌ ولا ظلّ فنمعن في عتمتنا، في عتمة العماء، وننخطف انخطافًا كلّيًا ننفصل فيه ونلتئم، يُبلّلُنا الدفءُ الذي ينضحُ الجسدان به. كانت تنخطفُ إلى عالم خِلْوٍ من الألوان، فارغٍ فراغَ العتمة، ممتلِئٍ امتلاءها، إلى عالم لا يحدّده منظر ولا جهة، إلى عالم غامضٍ كان يتفتّح في ليل حواسّها، في النهارات المنبثقة من ثنايا رغبتها. ولم تكن تبوح ولم تكن توحي بما يحدث خلسةً في الداخل، بما يُغذَقُ عليها سرًّا، ما ينهمرُ كالماءِ الوبيل. كان

عماؤها الذي اختارته من حين إلى حين منتهى ما طمحت إليه في غمرة الحالات التي كثيرًا ما اختطفتها وتخبّطت فيها. عبر عمائها كانت تتمتّع بما رأته وما لم تره وما تراه بعينيها. كأنّها كانت تُغمض عينيها كي لا تفقد ما ترى، ما لا يحدّده النظر ولا الذاكرة. وكانت كلّما خلعتْ منديلها تجعلُ تكتشفُ العالمَ من جديد، العالمَ الذي من حولها، العالمَ القليلَ الذي لم يبقَ منه إلاّ بعض ملامحه وتلك الزرقةُ التي تنتهي في زرقةٍ أخرى. وكانتْ كذلك تروحُ تكتشفُني من جديد وكأنّني لم أكنْ وكأنّ التحسّس باللمسِ يختلفُ عن التحسّس بالنظر. وكنتُ بدوري أدركُ كيفَ كانت تنتقلُ من حاسّةٍ إلى أخرى، من عماءِ العينين إلى ضوءِ البصر إذْ كان وجهُها يتبدّل ويتفتّح ويتبلّل بالعرقِ والماءِ ويمتقعُ ويبهُتُ. كان وجهُها غريبًا في قدرتِه على اختصار حالاتها الداخليّة كما لو أنّه مرآةٌ تضيء الرغبات الخفيّة المعتملة في طويّتها والمساحاتِ النقيّة من جسدِها السريّ.

وكان يحلو لها أنْ تنامَ حاجبةً عينيها بمنديلها، مستغرقةً في منتهى انخطافها وفي غيابها عن كلّ ما من حولها حتى ليخيّل إليّ أنّها ماتت ميتتها المرتجاة. لا يداها تتحرّكان ولا وجهُها ولا جسدُها يخفق خفقاته، غائبةً غيبةَ حياتها الغائبة، حياتِها التي لم أكن أدرك سرّها ولم تكن هي بدورها تدركُ سرّها، تلك الحياة الغائبة التي تجتذبُها فتحياها من غير أنْ تعيها تمامًا.

وكان يحلو لها أنْ تضمَّني وأضمَّها معصوبةَ العينين فنغيب غيبةً تلو غيبة. وكنتُ في غفلة عن ناظريها أشعرُ أنّني لم أعدْ ما كنتُ عليه. كنتُ في أثناء اعتمائها أشعرُ أنّني أضمحلّ بهدوء وأغيبُ غيوبَ الضوءِ في عينيها، غيوبَ جسدِها في جسدي وغيوبَ جسدي في عتمة ناظريها. وكنتُ إذْ أُقبل عليها أرتعشُ ارتعاشًا غريبًا وكانتْ هي بدورها ترتعش لارتعاشي وكان جسدانا يتموَّجان وينسحقان كلّ الانسحاق فلا نصحو ولا ننهضُ إلاّ مبلّلين بالضوءِ الذي كان ينزفُ من جسدها. وما كانتْ لتخلع المنديلَ عن عينيها إلاّ بعدَ انتزاعٍ يودي بها في غالب الأحايين إلى حالاتٍ قصوى من الغيبوبة التي لا توازيها غيبوبة. وكانتْ إذا أتتها الشهوةُ تتأوّه بصمت كلّي وتهتزّ وترتجف من غير أنْ ترفع المنديل عن عينيها وكأنّ إغماضهما يُطيل لحظات ارتعاشها الغريب الذي تتلقّاه بصمتٍ متراخيةً ومتخدّرة مستسلمة لهاويةِ الرغبة.

كانت تُؤْثِرُ في أحيان ألاّ تراني أحدّق في وجهها، ألاّ تراني أراها تتخبّط في لحظات ارتمائها. وفي أحيان كانت تصرّ على أنْ تراني أراها وعلى أنْ أحدّق فيها طويلًا. كانت تؤثرني بلا وجه حينًا وحينًا بوجه وعينين متوهّجتين تفوحان شغفًا واحتراقًا. كانت على تناقض من كلّ شيء، على حيرة وتردّد، داكنةَ المزاج حينًا كئيبةً كلَّ الكآبة، سوداويةَ النزوات وحينًا طلقةَ الوجه متفتّحة كبرعم مبتهجةً بخفر. وكانت حين يأخذُها الوسَنُ تتراخى في غيوبٍ شفيفٍ هاجعةً سحابةَ ليل، سحابةَ نهارٍ، غيرَ آبهةٍ لاختلاط الضوءِ والظلام. وكانت حين يستبدُّ بها الأرقُ لا يروقها غماضٌ في وافر اللّيل فتسهر حتّى أوّل الضوء. أكثرَ من امرأةٍ كانت وأقلَّ من امرأة. أغربَ من امرأةٍ كانت، متوحّدَة وأليفةً، رقراقةً ومدلهمّة، سرعانَ ما تكتدر، سرعانَ ما

تصفو.

هكذا كانَ يكتملُ عريها في ناظريّ، في ناظريّ فقط كان يكتملُ عريها، عريها الذي كان، عريها الذي يكون، عريها الذي لا يبوحُ بنفسه، الذي يخفي نفسه أبدًا. لكنّه لم يكتملْ إلاّ حين كنتُ أمعنُ في التحديق إليه، في التلاشي ملءَ أحجامه الداخليّة، وسعَ مساحاتِه الشامسة. وكانتْ

على تردّدها وارتباكها تُحجم حينًا عن عريـها فتلفّ جسدَها بالـملاءة البيضاء التي ما كانتْ إلاّ لتزيدَه سرًّا فـينقى إذ يتوارى فـي بياضٍ ساطع ويـحترق احتراقًا ويُمسي ظلًّا لرغبة تشتعلُ فـي عينيّ. كانتِ الـملاءة تضفـي على جسدها سحرًا آخر، برودًا آخر، دفئًا آخر. وما كان الجسدُ يـختفـي إلاّ لـيفوحَ فوحَ البياضِ الذي ما كنت إلاّ لأشمّه متنسِّمًا رحيقَ الجسدِ الـملتـمّ على أسراره. وكانتْ تستحيل الـملاءةُ مرآة تلوح عبر كسَرَاتِها الـملامح الخفيّة للجسد، الـملامح التي لـم أكن ألتـمسُها لا فـي يديّ ولا عينيّ.

كان عريـها قادرًا على أنْ يقولَ كلّ ما يـحلو لنا أن نقولـه وألاّ نقولـه، لكنْ صمتًا. كان عريـها وحدَه يقولُ لـيصمتَ كلُّ ما عداه. لتصمت نظراتُنا وأيدينا وشهواتُنا الـمائلة كالظلال. وكان بياضُ الـملاءة حين يمتزجُ فـي بياضِ جسدِها قادرًا بدوره على أنْ يـختصرَ كلّ ما من حولـه. فالعري ما كانَ يتوارى خلف البياض إلاّ لـيتفتّح بنفسه، لـيتوهّج وينخطفَ ويفتتن بنفسه فائحًا كالأرج. كان جسدُها يتوارى خلفَ الـملاءة لا لـيتوارى إنّما لـيـحترق بماء شهوتـه، لـيتبلل بناره الخفـيّة.

وعلى ارتباكها أيضًا وحيرتـها كانت تنهضُ حينًا فائقة العري لتصمتَ حيال عينيّ، لتتكئ إلى النافذة فلا تتحرّك حتى لـيتراءى لـي أنّ الضوء يتآكلـها فلا يظهرُ سوى ظلـيل جسدها. وما كنتُ، إذْ يُرهِفُ الضوءُ ناظريّ إلاّ لأراها كالطيف، كالطيف الذي يتجلّى فـي هنيـهات النعاس الخفر. غير أنّـها لـم تكنْ لتجعلَني أرى جسدَها جميلًا ويانعًا يُنوعَ جروحها ولا لتدفعني إلى التبصّر فـيه. كنتُ يـخامرني دومًا أنّني أسترقُ نظراتي إلـيها استراقًا، حتّى حين كنتُ أرنو إلـيها للحظاتٍ كان يتـهيّأ لـي دومًا أنّ عريـها لا يُنظر إلـيه إلاّ استراقًا فهو ما كان لـيقدّم نفسه بنفسه. وكنتُ يـخيّل إلـيّ أيضًا أنّني أحدّق فـيّ حين أحدّقُ فـي عريـها وأنّني لا أبصرُها إلاّ لأبصرَ نفسي. وكانت هي بدورها تسترق النظر إلـيّ استراقًا كما لو أنّـها تكتشف عريـها فـيّ فتخجل وتتغامض. ولـم تكنْ لتبوح، كانت لتصمتَ فقطْ صمتَ جسدِها، صمتَ رغبتـها العميقة، صمتَ موتِها الذي لـم تـمتْه كفاية.

غير أنّ عريـها كان يـحرّرها من كآبة خافيةٍ فـي عمق عينيـها، من سويداء تتأجّج فـي إدراك روحها. كان عريـها يردّ إلـيـها أريجها الأزرق الـمتلبّد الزرقة ويـجعل السماء على مقربة من يديـها. يوقظها من حزنـها القديم، من الحزن الذي حلّ لحظة فتحت عينيـها على صحراء العالـم. كان عريـها يردّ إلـيها البراءة التي فقدتـها قسرًا والصفاء الذي كدّرتـه أشواكُ الخارج. كان يردّ إلى جسدها ذكرى عرائه القديم الذي ما كان لـيشوبـه ظلامٌ ولا اغتلامٌ ولا رنقٌ.

كان لجسدها نداوةُ ما قبلِ السقوط، صفاءُ ما قبل الإثم. وكان من فرطِ نقائه يتبلّج ويتوحّدُ منغلقًا كالصَّدفة، صامتًا صمتَه الأزلـيّ، عذبًا عذوبةَ الجرح مرتـجفًا ومنقبضًا آخذًا فـي احتراقه. هو جسدُها قبل أنْ ينكسر صمتُه، قبل أنْ يـخرج من صمتـه الأول. هو جسدُ ما قبل الكلام، جسدُ ما بعد الكلام. هو جسدُها يصمتُ بنفسه، يلـهجُ بنفسِه. هو جسدها ذاكرةُ الكلام، ذاكرةُ الكتابة. هو جسدُها السابق الذي كان بنفسه جسدُها الذي كان قبل أن تكون لغة.

هكذا كان جسدُها أيضًا جرحَ اللغةِ، جرحًا نازفًا للغةٍ تنزفُ أبدًا.

غير أنّني ما كنتُ لأعرفَ جسدَها طوالَ ما عرفتُه. كنتُ أجهلـه دومًا وحين أُفضي إلـيـه كنتُ كأنّما لأوّلِ مرّة أُفضي إلـيـه فأكتشفُه كما لو أنّني أجهله. ولـم أدرِ حتّى الآن كيف أحبَبْتُه من دون أنْ أعرف حدًّا لـه، لضوئه، لعتـمتـه وظلالـه. وكنتُ فـي لحظات الـملل التي تحلّ بنا أحنّ أكثر ما أحنّ إلـيـه، أحفظُه وأردّده، أهذي بـه، أغيبُه، أحضرُه، أحضر بـه. كان جسدُها فـي لحظاتِ السأم التي تقاسمناها طويلًا هو السرَّ الذي يضيء سأمنا ويُسبغ علـيـه معنى ما، لونًا ما. فما كنت أسأمُ الجسدَ كجسدٍ بل كلّ ما لـم يكنْ إيّاه، كلّ ما كانَ دونه. كان جسدُها قادرًا على اختصار كلّ ما يـحيطُ بـه، الوقتِ والخوفِ والانتظارِ والأحاسيس الكثيرة الجارفة. كان كالزهرة الـمتفتّحة أبدًا، دافِئ النسغ، أزلـيَّ الرغبات، مضمّخًا بفوحه الداخلـي، بجوهره، بصورتـه. هكذا أحببتُ جسدَها كما يـحلو أنْ يُحَبَّ جسدُ الـمرأة، الـمرأةِ الـمأسورة بالحبّ، الآسرة بـه. أحببتُه كي لا يبقى سواه فـي عينيّ، كي لا أرى إلاّ بـه ولا أُغمى إلاّ علـيـه. أحببتـه جسدًا وصورةً لجسدٍ، صورةً لحقيقة لـيست إلاّ جسدًا مكتـملًا بذاتـه، برغباتـه وغرائزه النقية.

هكذا لـم يبقَ إلاّ جسدُها حيالَ عينيّ أفتحُهما علـيـه، أغمضهُما علـيـه، غائبًا فـيّ، حاضرًا فـيّ، غائبًا فـيـه وحاضرًا. وكان جسدُها على قلقِه، منغلقًا على نفسِه، راعفًا ومرتجفًا، صاخبًا

بالشهوات، صافيًا وهادئًا. كان جسدُها غريبًا بين يديّ، كانَ جسدي، كنتُ جسدَها، جسدها الغائب، أحفظه وأكونه، أحدّق فيـه وأنجرحُ جروحَه. وكنتُ أشمّه شمًّا عميقًا يفوحُ وأشمّه. كان لـه دفءٌ ناعم، أرَجٌ لا أذكرُ أنّني شممتُه من قبل. وكانت تنضحُ بالعرق كما لو تنضحُ بالصَّنْدِل. لا أذكر. كان لعرقها عبقُ الحقول، فوحُ التراب غبّ المطرةِ الأولى. كان عرقُها أعذبَ من الماءِ، حبيباتُه تلتمعُ فـي التماع جلدِها. وإذ يسيلُ فـي أحيان فإنّما كالدمعاتِ التي تتركُ أثرًا. وكثيرًا ما كانت تنضحُ بالعرقِ يبلّل وجهَها وصدرها وساقيـها الدافئتين فيندى جلدها الرقيقُ، الأرقُّ من زهرةٍ. لم يكنْ ذلك البللُ الذي يرشح منها سوى ماءِ روحِها، ماءِ احتراقِها الداخلـي، ماءِ الرغبات الدفينة التي كانت تنبثق حينًا وتـهجع حينًا. كان ذلك الماءُ ماءَ اعتمادِها بالجسد، بالروح، ناصعًا وزكيًّا، نابعًا من إحساسها الساطع بجسدها، بجسدي الذي كان جسدَها، المجرّحَ بالنعمة، المجروحَ باللذات، بالأطيابِ، الممرّغَ بوحدتـه، بوحدتنا التي تفوقُ صمتنا اكتئابًا وانحناء.

لـم يكنْ ماؤها الداخلـيُّ الراشح من حيائها يـختلف عن عرقها. كان لـه فوحُه النادر بدوره. وكالنسْغ لزجًا كان، راغيًا حينًا رغوَ الزبد. وكانت كلّما استعرتْ شهوتـها سال ماؤها وأزبد حتّى لـيتبلّل سواد عانتـها بالأبيض الدبق. آنذاك كان يـجتاح جسَدَها كلَّه إحساسٌ حارقٌ فـيخفقُ خفْقًا ويرتجفُ وينقبض. ولـم يكنْ من السهل أنْ ألِجَهَا. كان حياؤها نديًّا كبرعم وكانت تتألـمّ دومًا ألـمها الأول، تشهقُ شهقاتـها الأولى وكأنّـها لـم تعتدْ ما حصل طوال ما عرفتـها وعرفتني. وكانت كأنّما تفقد عذارتَها دومًا، عذارتـها التي فقدتـها من غير أنْ تفقدها فـيخيّل إلـيّ أنّ دمَها يسيل. لكنْ لـم يكن من دم بل كان ماءٌ، ماءٌ لزجٌ ودافئ. وحين كانت تأخذ فـي الرّهْز فإنّما أخذًا تامًا حتّى تنتابَها رعشاتٌ غريبة. فتتبلّل وأتبلّل ونتبلّل كلانا عرقًا وماءً، ماءً لزجًا عابقًا بالشبق والغيبوبة. وحين نهدأ كنّا نلتمسُ ماءنا الدبقَ الممزوج برحيق جسدينا وفوْحِ رغباتنا، ماءَنا السريَّ الغامضَ، الراشح من ملء التلذّذ الغامض، من امتلاءِ النشوةِ التي تـماثل نشوةَ الموت. وكم كان يطيبُ لـي أنْ أبلّل يديّ بمائها، برطوبة العانة والفرج، بنداوة اللُحمة المتفتّحة كزهرة خفرة. كنت أبلّل يديّ، يديّ ووجهي لأجعل من مائها ذِكْرًا، ذِكْرًا لغيابِنا، لحضورنا، لـموتِنا الذي لـم نمتـه.

وكنت أَلِجُهَا حينًا برقّةٍ تلائمُ رقّة جسدَها القليل وحينًا بعنفٍ كانت تحتاجه من غير أنْ تبوحَ بـه: عنفٌ خارجيّ يلائم عنفَها الداخلـيّ الذي ما كانت تُظهره. فجسدُها كان مزيـجًا من دفء وماءٍ، من ضوءٍ وعرق وكانَ إذْ يستعرُ فجأةً يـخبو فجأةً أيضًا، يـهبّ كالعاصفة ويرقّ كالنسيم. وكانتْ يـحلو لـها أنْ تستسلـم للدفـءِ والماءِ فتحترقُ وتخبو منغلقةً على نفسِها، مشرعةً على عينيّ، على يديّ، على جسدي، غارقةً فـيّ، منفصلة عنّي. وحين نتداخلُ كانتْ تسيل كالشمع وتذوبُ ذوبًا رقيقًا متفتّحةَ الحواسّ، مغلقةَ العينين مفتوحةَ العينين. وكنّا نغيب غيابًا واحدًا مبلّلـين محترِقَين وحيدَين أقصى وحدتِنا.

كانت تخفقُ وتختلجُ وتظلُّ تخفقُ وتختلجُ، تضمُّ وجهي إلى صدرِها خافيةً عينيّ فيما لا ينثني جسدها عن حراكه فتتلوّى وتتقلّب، تتشبّثُ بي تارة وتدفعني تارة، هاذيةً مرتجفةً ودافئةً. وكانت شهقاتُـها ترتفعُ قلـيلًا وتخفتُ بحسب اختلاجاتِها. عيناها زائغتان، يداها ترافقان حركة جسدها، قدماها ترتفعان وتنخفضان وحين تتـمرّغُ بي يستحيل جسدُها كتلةً واحدةً من عرقٍ ونارٍ ويـجمحُ جموحَه داخل السرير وعلى أطرافه. وكانت تـملأ السرير، كنّا نملأ السرير، يملأُنا السريرُ فلا نغادرُه.

وكنّا في وطأةِ التحامنا نكونُ جسدًا واحدًا، جسدًا يبدأ من الحطام الروحيّ لجسدين غائبين تمامًا. من أنقاضِنا كان ينهضُ جسدٌ برغباتٍ كثيرة وآلامٍ وجروح.
وفي وطأة الالتحام كان يمتزج الدمُ والروح امتزاجَ الخمر والماء، وكان الجسدُ إذ يلتمسُ ناره يلتمسُ نورَه، نارَ جحيمه ونورَ شمسِهِ. وكان إذ يندفعُ بضراوةٍ يهفُّ ويصفو صفوَ أوّل النهار. وما كان يُشبع صبابته إلاّ لينخطفَ لطيفًا لطافةَ الماء مفتّتنًا كالناي.
غير أنّني أجملَ ما كنتُ أراها حين تفتحُ عينيها إثر انخطافها. وجهُها متفتّحٌ ونظراتها حليمة وهادئة وكأنّما نهضتْ فجأة من نوم عميق، من موتٍ عميق. كأنّما بهرت عينيها شمسٌ فراحت تفتحهما وتُغمضُهما بخَفَرٍ. كان يبدو وجهُها آنذاك غريبًا نديًّا ورائقًا تمامًا. وكانت ابتسامتُها نفسُها منعقدةً كالبرعم، حييّةً وطريّة كالقطن. وعلى شآبيب الوجه تندلع آثار الرغبات التي خالجتها، تلك الرغبات التي أغرقتها وفاضَ بها جسدُها. فالوجهُ في ذيّاك الوقتِ هو كالمرآةِ المشرعةِ على الداخل. يبوح بالإحساس الخافي الذي أحسّته وما برحتْ وكأنّه لم يفارقْها. ولم يكن يفارقُها بسهولة ذاك الإحساسُ النقيُّ باللّذّة، بالنّشوة والموت. وكانت مذ تفتحُ عينيها تُغرب في التأمّل من دون تأمّلٍ، نظراتُها غير ثابتة، جسدها متراخ تراخيَ الرغبة وما بُعيدها. وكانت الحالُ تلك بدورها جزءًا من رغبتها، من رغباتها التي لم تكن تعرف بداية ولا نهاية.
وكم كان يلذُّ لها أنْ تبقى في السرير مبلّلةً برطوبتِنا، مُسْتَسْلِمَةً لنوام رهيف، متمرّغةً بنفسها أمام عينيّ، عاريةً كلَّ عرائها، ساطعةً بالعرقِ والروائح الزكيّة. كانت آنذاك تتمدّد وتتقلّب مُظهرةً جسدَها للضوء، للهواءِ القليل الذي يتسلّل من النافذة ملامسًا جلدها الرطب ووجهها الناضح بالعرق. كانتْ تألفُ تلك الرطوبة التي تجعلُ الملاءة لِصْقَ جسدِها وجسدَها لِصقَ الملاءةِ، تلك الرطوبة التي كانت تتنسّمها كرائحة البحر. ولم تكن تغادرُ السرير إلاّ حين تجفّ الملاءةُ، حين تجفّ رطوبةُ

جسدينا. كانت تنهضُ إلى الماء لتغتسل فتفوحُ رائحة جسدها، رائحةُ جلدها يرويه الماء.
كنتُ أرنو إليها تستحمّ يغمرُها الماءُ وكانت كأنّما يَروقها أنْ أنظرَ إليها تحتَ وابل الماء فتروحُ تلامس جسدها بهدوء وترغوه بالصابون رغوًا حتّى يتبلّج فتسيل الرغوةُ من رأسها إلى القدمين وتغمرُها متقطعةٌ لدى الثديين ولدى الحقوين في الأسفل. ولدى سكب الماء كانت تنحسرُ الرغوة ويظهرُ الجسد ناصعًا تتناثر وسعَه حبيباتُ الماء. من الوراء كنتُ أرنو إليها. وجهها إلى الجدار، ظهرها الأملس مسكوب من تلقائه، حقواها ناعمان نعومةَ ردفيها المرسومين كأنّما بضربةٍ واحدة. وكانتْ عيناي تنزلقان من أعلى الكتفين نزولًا إلى الردفين فالساقين الملساوين. كان لمرآها ذاك إحساسٌ غريبٌ يؤلمُني قليلًا. كأنّني ما عرفتُ تلك الجهة من جسدها، ذاك النصفَ الخفيّ أبدًا رُغم أنّني عرفته كثيرًا بيديّ وشفتيّ. كأنّني حين أحدّق فيها تستحيلُ امرأة أخرى، إمرأةً لا أعرفها. هكذا كانت تترنّق في أحيانٍ وتتغبّشُ، تصبح جزءًا من الجدار، يصبحُ لجسدها لونُ الضوء القاتم، يصبح له زرقةٌ كزرقةِ البحر. كان الماءُ وحدَه قادرًا على تفتيح براعم جلدها، على إضرام شهواتها وكانت تحت الماء تستسلم لما يشبه الغيبوبة، يتناثرُ الماء من حولها مازجًا سواد شعرها باللون الظليل لجسدها، باللون الذي لم يكن يبوح به جلدها تمامًا. وكانت ألألوان تلك تمتزج في عينيّ حتّى لتصبح لونًا واحدًا هو لون الماء منحلًا في لون الجسد، في ألوان الرغبة المنفغمة.

كنت أصحو من غيبوبة مرآها لأنظر إلى جسدها فـي عرائه، صافـيًا لا يرنّقه ظلّ ولا يعروه كمد. فأسترجع الجسد، من غيبتـه عنّي، من غيبتي عنه، في غيابـه فـيّ، في غيابي فيـه. وكنتُ سرعانَ ما أدركُ أنّني أحبّها لعرائها، لعريـها الذي ما برح يقلقني ويُبـهر عينيّ ويـختطفني مخترقًا إيّاي كالسهم.
وكانت حين تخرج من الـماء تلفّ جسمها بالـمنشفة البيضاء ولا تلبث أن تحفّه بـها حفًّا هادئًا فـيمتزج بياض الـمنشفة وذاك البياض، بياض جلدها وذلك السواد، سواد شعرها. وكانت من حين لآخر تبينُ ملامح جسدها فأرى إلـيـها وكأنّني ما رأيت إلـيـها يومًا. وحين ترمي الـمنشفة البيضاء على السرير يرتسم جسدُها على البياض، ترتسم آثار جسد على بياض آخذٍ فـي الاتساع حتّى لـيحاصرني حصارًا نقيًّا.
إنّـها بين يديّ الآن. يداي تختصران جسدها، تزرعانه بالجروح وتتركان وِسْعَ تلافيفه ندوبًا خفيّة، هي ندوب رغبتي فـيـها، رغبتي الـمتأجّجة حتّى الـموت. يداي تحترقان الآن ملءَ جسدها، ملءَ جلدها الناعم الـمحبّب تـمرّان مرًّا ناعمًا على جسدها من أقصاه إلى أقصاه، تـمرّان على وجهها، على الجبين، على العينين، على أبيض عنقِها، على ثدييـها الصغيرين، على جرحها الذي كان، على جلدها الـمتفتّح الشهوات، على الـمرفقين، على أسود الشعر، على الشقّ الأرجواني منفغمًا ومنغلقًا على لزوجتـه، على الشفرين الـمبلّـلين، على اللحمة. وكلّما مرت يداي علـيـها ارتعدت. يأخذها الرعش فتتلوّى وتتقلّب وتتأوّه لكنْ بصمت. ولا تبرحُ يداي تـمرّان مرًّا رهيفًا من اللحمة إلى العجانِ الغامضِ الرطب إلى الردفين الـمرتفعين قلـيلًا، الـمنحدرين ملءَ الساقين الـيانعتين. يداي ترتجفان ولرجفهما حين تصعدان من أسفل الردفين وقعٌ على جلدِها الرقيق النديّ. تنزلق يداي من أسفلِ الردفين إلى الأعلى بحسب الخطّ الـملتوي والصاعد حتّى الكتفين. وحين ترتوي يداي تأخذ شفتاي فـي تلـمّس آثارهما، فـي تلقّف الدفـءِ الـمحفوف بالرغبة. تحترق شفتاي بدورهما تشمّان جلدها، ترعيان جسدها من أقصاه إلى أقصاه تنجرحان وتذوبان كالبرعم الخبيء للجسد.
غائمة الآن فـي عينيّ كبقعة ألوان مـمتزجة بالعرق والزبد. لا أرى إلـيـها إلاّ كواحةِ ألوانٍ كامدة حينًا، مضيئة حينًا وفقَ الضوءِ الذي ينسلّ من النافذة، وفقَ الظلال التي تنسحب على السرير والـملاءات. فـي بياض الـملاءات لـم يكن ينحلّ لون جلدها تـمامًا، ولا سوادُ شعرها بل كانت الألوان تـمتزجُ امتزاجًا مائيًا حتّى لتغدو لونًا واحدًا متدرّج الأضواءِ والظلال يُضفـي بياضُ الجدار علـيـه مسحةً خاصة. هكذا كان يشتعلُ جسدُها اشتعالَه اللونيّ فلا يبقى سوى لون واحد هو لونُها، لونُها الـمختصرُ الألوان الأخرى.
وكم كنتُ يـحلو لـي أنْ أراها فـي الـمرآة، فـي الـمرآة الـمقابلة لنومها، لاسترخائها على السرير. تـمنح الـمرآة جسدَها نوعًا من الوهم فيبدو مختلفًا فـي لونه وحجمه. تحصرُها الـمرآة داخل إطارها وتُبـرز ما خفـي عن عينيّ، ما رأيتـه وظلّ خافـيًا. تجعلُ الـمرآةُ من جسدِها صورةً، تجعلُ لـه صورةً يصعب كسرُها أو جرحها. فـي الـمرآة أراها كما يـحلو لـي أنْ أراها من غير أنْ أنظرَ إلـيـها، من غير أنْ أترنّاها واقفًا قبالة جسدها الـمستلقي. وأجمل ما أرى إلـيـها حين تتـمدّد عاريةً على السرير حتّى لـينبسط عريـها وسْعَ الـمرآة فتتلاشى زوايا وفسحاتٌ من جسدِها وتتداخل. يصبح شعرها الـمنسدل ناحية الظهر أقربَ إلى الردفين، وحياؤها إذا ما تـمدّدت على صدرها

وفتحت ساقيـها يصلـه بظهرها خيط واحد. حمرتـه الخفرة تنتـهي بيضاء عبر الشقّ الصاعد من الردفين حتّى الكتفين. وكان لساقيـها فـي الـمرآة أيضًا سكبـهُما الـمريع فوق السرير.
وكان يغافلُها النومُ حينًا متراخيةً على ظهرها، رأسُها إلى الوراء، يدُها مَلْقيّةٌ على صدرها خافية جرحها، جرحَ ثديـها، فيما رجلاها مطويّتان، وفخذاها منفرجتان وشعرتـها تضيء بسوادِها حياءَها الـمنشقّ عن زهرةٍ منغلقة ومتفتّحة فـي لحظة واحدة.
وكان حياؤها يتعدّد فـي تعدّد تلافيفه وألوانه، من سواد العانة إلى حُمرة اللُّحمة وكَمَدِ الشفرين الرقيقين. كان يغدو حياؤها بقعة غامضة لرغبات غامضة.

ولـم يكن مرآهُ سهلًا ومباحًا ولا التماسُه إذ كان يَغْمُضُ وينقشع فـي الآن نفسه. كان لـه سحرُه الخاصّ، سرّه الخاصّ فيلتـمع كالسراب تتخاطفه ألوانه وثناياه فيـختلف من نظرة إلى أخرى اختلافًا هو نفسه اختلاف جسدها حين ينثني على ذاتـه، حين يتراخى، حين ينسحب كالظل على السرير. كان لحيائها دفءٌ ألتـمسه بعينيّ، هو دفـءُ عينيّ ربّما حين تريان إلـيـه، يغيم ويغتلم ويتضاءل حتّى لـيصبح بقعةً كامدة، جرحا مبلّلًا برطوبتـه. كان يثير حياؤها فـيّ أكثرَ من رغبة، إحساسًا مـمتلئًا بما يـجعل الـموت والحياة ضوءًا واحدًا، عتـمة واحدة. كان ذلك الشقّ يطلّ على هاوية، هي هاوية جسدينا، حين يتداخلان ويتوحّدان، هي هاوية اللّذة يـحفّها الخواء العميق، خواءُ ما قبلِ الجسد وما بعده. كان ذلك الجرحُ الفاغرُ أثرَنا الذي لـم نتركْه، أثرَنا الذي لـم يغادرنا لـيشهد لنا، لرغباتنا العميقة، لحنيننا الأعمق من الـموت.
وكان يـحلو لـها أنْ تتـمدّد، مُغمِضَةً عينيـها رافعةً ساقًا مُرخيةً ساقًا فيما رأسُها إلى الوراء وصدُرها على انحناء تُخفـي بيدها ثديًا واحدًا فيما تتراءى حلـمتـها الأخرى كنقطة كامدة فـي غمرة البياض الـملتصق بالسرير. هكذا كانت تبرح وقتًا غيرَ قليلٍ مغمضةً عينيـها لا يبين من وجهها إلاّ نصفه إذ يغرق النصف الآخر فـي عتـمة النصف الأوّل. ولدى ارتفاع الساق وارتخاء الأخرى تبدو شعرتـها جزءًا من ألأسود الذي يتخلّل زوايا جسدها فـي تـمدّده وانحنائه. ولـم أكنْ أرى سوى ذلك الجسدِ فـي بياضِه وفـي سوادٍ كان يتداخلـه ويـحيط بـه.
وكانت تتجمّع على نفسها حتّى تتداخل فـي نفسها كليًّا: يصبح جسدها حركة واحدة لكنْ على تقطّع وتكسّر. خافـيةً وجهها، منحنيةً، لا يظهر من جسدها إلاّ جانبٌ واحد تتداخل عبره أطرافُها تداخلًا مثيرًا. كانت آنذاك تلتصقُ بنفسها أكثرَ، بأعضائها، بثدييـها، بالبطن والفرج، ولـم يكن سوى ظهرها عرضة للـهواء والضوء.
وفخذاها على نعومتـهما حين تلتقيان كان يزيدهما خطُّ التقائهما فتنةً. وكان الخطُّ إذْ ينطلقُ من الركبتين منبلجًا يـحتدُّ سوادُه تدريـجًا حتّى يصبّ فـي قتامة العانة فـي أسفل الحوض الذي لـم يكنْ لـيظهرَ كثيرًا.
وحين تتـمدّد على ظهرها قبالة النافذة كان بياضها يلتـمع فـي الضوء الـمتدرّج تدرّج جسدها وثناياه. وكنتُ إذا رأيت إلـيـها من الأمام يرتسم فـي عينيّ الشقّ الأرجواني غيرَ مُفصحٍ تـمامًا عن تلافيفه إذ يبدو كشفتين غير مكتملتين تنتـهيان إلى الأعلى فـي سواد قليل يتـموّج فـي تـموّج الضوء وتقتـمان فـي منتـهى الجوف قتاما. كان شعاعُ النهار يُضيء أكثرَ ما يُضيءُ آنذاك صدرها والبطن الناعم فتظهر سرّتـها التي كثيرًا ما اختطفتني كالجرح، كالأثر الذي تركه جرحها إلى يمين الحوض. كان لسرّتـها وهجٌ مختلفٌ أيضًا فهي نقطةُ الجسد، ذاكرتُه التي غابت، موتُه ونهوضه.

وكانت الوبرات الرقيقة التي تحيط بـها تـمنح مرآها وأخذَها بالأصابع حينًا وبالشفتين حينًا، دفئًا خاصًّا وكذلك التجاعيدُ الخفيفةُ التي كانت تنمّ عنها. وفـي غمرة الـملاءة التي تحيط بـها وسْعَ البطن والحوض كانت السرّة تثير فـيّ حنينا ما، تحرّقًا واضطرابًا عميقًا. كانت السرّة جرحًا آخر فـي جسد ملتئم بجروحه.

وأجمل ما كانت تتراءى حين تتمدّد على ظهرها فالجة ساقيـها فـيبرز حياؤها مختصرًا جسدها. عروةُ حيائها منهدلة كزهرة نديّة الأوراق، والشافران الـمنغلقان والـمنفصلان يرتسمان بأحمرهما الخجول كحدّين لرغبةٍ لا تُحدّ. عُنّابُ الفرج منبثقٌ بخفر ولا يكاد يبينُ وسط التلافيف التي لا تُوصَفُ. وكان ممّا يزيد من نتوءِ الحياءِ إزاره الـمشتعلُ السوادِ، كثيفًا فـي الـمقدّم متضائلًا بين الوركين. فإذا الفرجُ الـمسبولُ أقربُ إلى اللُّحمة الناشزة الـملتـمعة كشعلةٍ. كان لـمرأى حيائها قدْرٌ من غموض. كزهرةٍ كان، كزهرةٍ لا تفصح عن نفسها، كزهرة لرغبات غامضة، لرغبات تحدث ولا تحدث. كان حياؤها الجزءَ الليلـيَّ من جسدها. كان حياؤها لـيلَ جسدها. كان لـيلـها.

وكانت إذا انقلبت على أجوفـيـها، على بطنها والحوض اختلف مرأى فرجها. من الخلفِ كانت عروةُ الفرج تلتـمُّ كالبُرعم وتنغلقُ كالصَّدَفة، حمراءَ على قلـيلٍ من القتامة. فَالعِجانُ الـمتواري بين الفرج والبتيلة جزءٌ من الشقّ الـمنحفر والصاعد حتّى ملتقى الردفين. وكان حياؤها على اختلاف مرآه يـختلف حجمًا ولونًا. فإذا حرّكت ساقًا زاد نتوؤه وإذا ضمّت الساقين توارى ولـم يبنْ سوى طرفٍ منه مائل الحُمرةِ والكمدِ. وكثيرًا ما كان يغيم حتّى يستحيلَ بقعةً غامضة لألوان ورشوحات ورغبات.

وكان من حين لآخرَ يستحيلُ وهمًا، يتحرّر من أسر العين والـيد مضمحلًّا كالظلّ متلاشيًا كغيمة.

وكان من حين لآخر ينفغر كالـهاوية يبتلعُ الجسد والوجه والعينين.

وكان أيضًا يستحيل هو الجسد، مبتداه ومنتـهاه، عتـمتـه وضوءه، ماءَه وشمسه.

وكنت بيديّ أراه، ألـمسُه بعينيّ فـيحتويني كالـماء وأحتويـه كالـموت، كالـموت الذي لـم أمتْه. غامضًا غموضَ أيّ فكرةٍ غامضة كأنّما لـم يكن ما كانه، كأنّما كان فكرة لـما لـم يكن، وهمًا، حقيقة، حلـمًا. كان لـه غموضُ حلـمٍ أذكرُه من غير أنْ أذكرَه تـمامًا.

وكلّما تعدّدتْ أحجامه غَمُضَ أكثرَ فأكثر. كلّما امتزجت ألوانُه الغريبةُ غامَ وترنّق واحتدمَ احتدامَ الغلـمة حتّى يمسي كالأثير.

الآن أراها أمام النافذة، عاريةً فـي الـهواء القلـيل الذي يـهبُّ من البحر رطبًا ومالحًا، عارية فـي الضوء، ضوء النهار القلـيل، راكعة على السرير الـمحاذي للنافذة ظهرُها إلى الوراء، إلى عينيّ ووجهها إلى الزرقة، إلى الفضاء الحائل الزرقة. محنيّة الرأس قلـيلًا، عيناها متواريتان، يدها الـيمنى على حافّة النافذة فـيما الـيسرى على خاصرتـها الـيسرى. الضوء يغمرها غمرًا، يـخترقُ شعرها وينتشر ذهبـه ملءَ أطرافِها

وينسلُّ من منفرج الفخذين، ولدى انفصالـهما، لدى التقائهما كان الضوءُ يقتم ولا يلبث أنْ يلتـمع نزولًا حتّى حافّة النافذة. فـي النافذة يُضفـي الضوءُ علـيـها قدْرًا من غبش يـحيط بـها كالـهالة مندغمًا فـي شعرها ماحيًا ثدييـها ومطارفَ جسدها. الآن أراها كصورة فـي إطار يـحدّده الضوء، الضوء وحده.

وأراها جالسة على السرير منفصلة عن النافذة وحافّتِها يغسلُ الضوءُ صدرَها غسلًا حتّى ليلتمعَ كالذهب ماحيًا غارب ثدييها الصغيرين منعكسًا على صفحة البطن ملامسًا فخذيها الناعمتين.
هكذا كانت تجلس قبالة النافذة تحدّق لوقتٍ طويل في زاوية ما لا تحرّك جفنًا ولا يدًا وكأنّما أحد يتملّاها في الضوء المتوهّج على مساحات جسدها.
لا أراها الآن. الآن تحلّ فيّ، في جسدي. تغيب كالطيف وكالطيف تحضر. على صفحة المرآة أراها فيما أرى إليّ. عيناها اللتان لم تكونا تنظران هما الآن عيناي اللتان لا تنظران. وجهُها الغريبُ وجهي. يداها يداي. غائمةٌ فيَّ الآن واضحةٌ كلَّ الوضوح، أحسُّ ما أحسّتْ طويلًا، أنحني انحناءتها، أصمتُ صمتها، أخافُ خوفها. جروحُها تتفتّح في نواحي جسدي. أغيم قليلًا، الدمُ ينبجسُ، الدمُ يغسِلُ الوجه واليدين، الدمُ يغسل العينين في المرآة، الدمُ يغسل المرآة...
أمامَ المرآة لم أعد أقفُ طويلًا، فالمرآةُ مرآتها. غادرتِ الغرفةَ والسرير، غادرت النافذة والكرسيّ لكنّها لم تغادر المرآة. الآن كلّما نظرتُ في المرآة رأيتها. لم أعد أرى في المرآة نفسي، صرتُ أراها. دخلتِ المرآةَ، صارتْ هي المرآة، المرآة وصورتها.
أعرف أنّني وحدي الآن. أذكرُها فقط، أذكر أنّها كانتْ هنا وأنّها كانت كلّ ما يمكن أن تكونه امرأةٌ وألاّ تكونه أيضًا، ما يمكنُ أن يكون انتظارُها، انتظارُ امرأةٍ لم تكن إلاّ وهْم امرأة، إلاّ طيفَ امرأةٍ. ومن شدّة ما عرفتُها جهلتُها ومن كثرة بُعدها اقتربتْ. كانتْ كلّ ما كانتْ، وغابتْ فجأة. لكنّ ضوءَها لم يغادرني وكذلك ظلُّها، ظلُّها المحفورُ فيّ كالوشم، ورائحتُها الفائحةُ أبدًا في عينيَّ، في يديَّ.
لا أعرف من غادر من، مَن غادر الغرفة وتركَ البابَ مفتوحًا وراءه، هي أمْ ظلّها. هل كانت امرأةً حقًّا أم طيفًا لامرأة تغادرني دومًا، تغادرني وتحضر فيّ، تحضر فيّ ولا أعرفها. أم ترانا غادرنا كلانا معًا كطيفين لرجل وامرأة غائبين. الآن تصبح الذكرى أليمة. في الذكرى أجدني عاجزًا عن التمييز بين ما حدثَ وما لم يحدثْ. كأنّ كلَّ ما حدث تلاشى فجأةً كالضوءِ. إلاّ أنّني أعرفُ فقط أنّني كنتُ، أنها كانت، أنّني كنتُ وكانتْ هي إيّاي وأنّنا لم نغادر إلاّ لأنّ الوقتَ حان ولأنَّ السماءَ ادلهمّت وزرقةَ البحرِ أفلتْ في عيوننا. إنّنا الآن ذكرى رجل وامرأة، ذكرى رجل لم يجد نفسه إلّا في امرأة، ذكرى امرأة لم تجد نفسها إلاّ في رجل إنّني الآن ذكرى رجل، إنني الآن رجلٌ يسترجع ذكراه ليحيا ذكراها، ليكتبَ فقط ما لم يعرفه وما لا يعرفُه، ما صَمَته طوالَ ما عرفَ من الحبّ الممزوجِ بالموتِ والحنين الغامضِ والسأم.
إنّني الآن وحدي أستيقظُ ويستيقظُ قربي العالم. الضوءُ في الخارج يلتمعُ كسراب الصحراء. زرقةُ البحر تتقاسمها النوارس. في آخر الأفق فراغٌ ليس إلاّ فراغَ البحر والسماء حين يمتزجان، فراغ الزبد الأول والأخير، فراغ اشتعالنا، فراغ انطفائنا في ماء رغبتنا.
الآن أحيا غيابها لونًا لونًا، أتنسّم عشبها وأضمّها كشجرة، أغتسل بها، بضوئها، أغسل عينيّ برائحة يديها وأمتلئ بصمتها، بصمتها الذي كان كالسرّ غامضًا وعميقًا. الآن أدركُ معنى صمتِها، معنى عتمتها تلك التي كانت تضيء نهاري وترتسم في عينيّ كبقعة لظلالٍ وأحاسيس غامضة.
وحدها الآن، وحدها على السرير نفسه، ببياضها وبياضه وبياض الجدار المتلاشي في وطأة الضوء المنسلّ من الخارج. مغمضةَ العينين منحنيةً على نفسها على جسدها مستسلمةً لعتمة عينيها يحيط بها الضوء، يغمرها ويجعل بياضَها وبياضَ السرير والجدار واحدًا، يجعل البياض

فضاء للجسد وفراغاتـه، للجسد وظلالـه الغائبة. على السرير منحنيةً قلـيلًا إلى نفسها، مضمومة إلى نفسها لا ترغبُ فـي النهوض، ترغبُ فـي أنْ ترى ما اعتادت أنْ تراه وأنْ تنصتَ إلى ما نَصَتت إلـيـه كثيرًا. وحدَها فـي غمرة الضوء الذي يمحو الغرفة ببياضِه، تُصبحُ بيضاءَ كالجدارِ وكالسرير بيضاءَ أيضًا.
كم كانت تؤثرُ لدى استواء النهار أنْ تسندَ ظهرها إلى الزاوية الـمقابلة للنافذة جامعة نفسها جالسةً على قدميـها فاتحةً يديـها لسماءِ الغرفة، رافعةً رأسها إلى الوراء حتّى يندمج بياضها فـي بياض الجدارِ وينهدل على صفحتـه ظلُّ جسدِها فـي وضعتـه الغريبة، فـي انحنائه على نفسه. ولـم تكنْ يداها الـمفتوحتان تتركان الجدار ولا ظلال يديـها كذلك. وكانت تظلّ هكذا لوقتٍ، مغمضة العينين، غائبةً غيابـها. وحين يأخذها التعبُ كانت تقف فجأة لِصقَ الجدار رافعةً يديـها وذراعيـها، حانيةً رأسَها إلى الـيمين من غير أنْ تفتح عينيـها. آنذاك كان يضوئل ظلّها الـمرتسمُ على الجدار. فيـحلُّ جسدُها العاري حلولـه الضوئيَّ ملءَ ذيّاك البياض الذي يلوّحه الشعاع الباهت للنهار.
هل كنتُ أراها هكذا أم يُخيّل إلـيّ أنّني رأيتـها هكذا؟ هكذا مسندةً إلى الجدار، مستسلـمةً لبروده وخوائه الأبيض! وكان عريـها آنذاك على الجدار يَغمُضُ أشدَّ ما يَغمُض إذْ تبينُ بقعه القاتـمة، كندوب فـي البياض الآخذِ فـي الغبش. وكان لارتفاع يديـها والتصاقهما بالجدار رأفةٌ حارقةٌ وحنانٌ جارح كالصمتِ الذي يُشعل جسدَها من الداخل. آنذاك كنتُ لا أبرح إلـيـها حتّى تـمّحي فـي عينيّ، حتّى تغيب غيوبي عنها، غيوبَ الضوء لدى أفول الشمس.

الآن تستحيل صورةً أمام عينيّ، أجعلُ من جسدها صورةً لجسدٍ عرفتُه وأعرفُه كلّما حدّقت إلـيـه. هي الآن صورة أمامي، صورةٌ جعلتُ أصوغُها كي أحفظها هي وكي أحفظ جسدَها وأبقيـه أمامَ ناظريّ نديًّا مشبعًا بصفائه. هكذا صنعتُ صورتـه لأجعلـه واحة ظلالٍ ورغباتٍ ولألتـمسه بعينيّ، لأتذكّره بعد أن غادرني وغادرتـه من غير أن يكتـمل بي ومن غير أنْ أكتـملَ بـه. الآن أصبح الجسد جسدًا بذاتـه، أراه لأراه فقط، لأدرك أنّـه لـم يعدْ إلاّ طيفًا لجسد ما عرفتـه لكثرة ما عرفتُه. الآن تجمعني بـه خيبتنا الواحدة، خيبةُ النقصان، خيبةُ الاستحالة. الآن أدرك أنّ رغبتي بـه ما برحت كالجرح الذي لا يلتئم. الآن أشعرُ بـه كجرح فـي خاصرتي، كطعنةٍ فـي ذاكرتي الـمفقودة. كأنّني من شدّة ما رغبتـه لـم أرتوِ منه ومن شدّة ما غرقت فيـه أتحرقّ إلـيـه، كأنّني فـي احتراقي بـه أحترق بنفسي مبتلًّا بماء غيابـه. الآن أجهلـهه كما أجهل كلَّ ما من حوالـيّ، ما أراه وما لا أراه. الآن أجهلُ حياتي تلك الـمتوهّمة، الـمحلومة والـمنسيّة. لـم تعدْ حياتي الآن حياتي ولا ماضيّ ماضيّ الذي كان.
أعرفها الآن لأنّني أنظر إلـيـها فقط، أنظرُ إلى صورتـها التي أمامي، صورتـها التي فـي عينيّ، صورتـها التي أصبحتْ عينيّ. أمتلكها الآن بعد أن تحرّرتُ منها، بعد أن تـحرّرنا من رغباتنا، من جروحنا، من سأمنا، من بقائنا وحيدين متشابـهين. الآن أعيـها أكثرَ، واعيًا جسدها وجروحه وظلالـه، كآبتـه وانطواءه علـيّ. الآن يـخرجُ جسدُها من سرّه، أبصره فلا يتوارى. ربّما لأنّني أصنعه الآن، لأنّني أرسمه فـي عينيّ، لأنّني أجعلـه صورة لجسدٍ كان مقدارَ ما لـم يكن، لجسدٍ كان قبلَ العالـم وقبل اللغة، لجسدٍ كان اللغة قبل أن تكون، والعالـم قبل أنْ يكون.
ها إنني وحدي أيضًا مستسلـمًا لأوهامي عاجزًا عن التـمييز بين ما حدث ويـحدث، بين الوقت وذكراه، بين الواقع ووهمه. كلُّ ما يلتـمع أمام عينيّ كالسراب يتلاشى بينما يـحاصرني الخواءُ،

خواءُ الليل والنهار يتّصلان ضوءًا وظلمة. في كدر الليل والنهار أقعُ، في الهاوية التي تجمعُ بينهما. وفي وطأةِ الخواء أفقُدُ الإحساس بالوقت، يخزني كالشوك ولا أحسّه، أتمرّغ فيه من غير أن أحتويه. ولا أفتحُ عينيّ إلاّ على ليل، ليل عاتم، على نهار يانع الصمت مرتفع. ليلٌ وافرٌ ونهارٌ وافرٌ يختلطان الواحد في الآخر وينساحان في عينيّ، في عتمة عينيّ. فإذا بي واجمٌ أسيان، لا أذكرُ ما ينبغي أنْ أذكرَه ولا أنسى ما يجبُ أنْ أنساه. في ذاكرتي تختلط الصورة والأوهام، الوجوه والأشياء، وأشعر أنّني غائب، أنّني أنسحب كالظل على أرض جرداء لا يحرسها ضوء ولا يحدّها فضاء.
لم أعدْ أذكرُ شيئًا. على عتبة الغرفة ينتهي عالمٌ ويبدأ آخر. هو عالمنا بعد أنْ تخلّينا عن كلّ شيء، بعد أن هجرنا صخب العالم، بعد أن ضؤلت أحلامُنا وتلاشتْ. لم أعدْ أذكر. كانتْ هنا كي لا تكون وكنتُ وما برحتُ هنا كي لا أكونَ أيضًا. إنّني الآن فُتاتُ ذكريات، صورةٌ مبهمة لوجهٍ، لجسدٍ، لروحٍ نزقة. وجدتُ نفسي صدفة، وحيدًا أمامَ أوراقي، وحيدًا وعاجزًا حتّى عن إدراك ما مضى. كأنّني بدأت الآن، كأنّني نهضتُ من موتٍ عميق لا أذكره جيّدًا. كأنّني من غيابها نهضتُ، من نومها، من صمتِها الكثيف.
أبدو الآن هادئًا، لكنّني خائفٌ، خائفٌ خوفي الغامضَ، خوفي الأليمَ من البياض أمامي والبياض الذي في عينيّ. بياض هائل يحاصرني ويداي ترتجفان كلّما اقتربنا من أبيض الأوراق. كأنّني حين نهضتُ لأكتبَ لم أكتب إلاّ موتَ الكتابة. لم تفعل الكتابة ما اعتادت أنْ تفعل، ماتت موتَنا ونهضت فوق خرابنا حينَ لم نكن لا أنا الغائب ولا هي. حين لم يكن جسدانا ولا ظلالهما ولا أوهامهما.
أحاول الآن أن أستعيد كلّ ما كانت تصمتُه ما كان يقولُه جسدُها بصمته الأجوف. أحاول أنْ أقولَ كلّ ما لم تستطعْ أنْ تقوله، كلّ ما لم تحتجْ أنْ تقوله، كلّ ما قاله جسدُها، إغماضةُ عينيها، استسلامُها لخدرِ الصمت، غيبوبتُها، عجزُها عن الكلام، موتُها الذي كان موتي. كأنّني لم أعدْ من العالمِ ولا فيه. كأنّني أقيمُ في ذكراها، في ذكراي، كأنّني أصبحت أنا المنفى وأنا المنفيّ في المنفى، كأنّني أصبحتُ منفيًّا في نفسي غريبًا وغامضًا. ولم يكنْ يحدثُ أمامي شيء ولا ورائي شيء ولا من حولي شيء. أقول، أحاول أن أقول ما لم يبق لي لأقوله، ما مات فيّ من كلام ومن صمت.
أكتبُ إذن أو يتهيّأ إليّ أكتب، لكن كمن نسي كلَّ شيء، لغته وصمته. أكتبُ لأكفّر عمّا صمتُّه، عمّا لم أقترفه. أكتب كما لو أنّني أموت مبصرًا ما لم أبصرْه. مغمضتان عيناي أو مفتوحتان. أرى أو لا أرى. أقعُ في معصية الجسد، منتظرًا ضوءًا ما، ضوءًا يطلع من رميم خرابنا.
أخاف لكنْ من لا شيء. أتألّم ولا أعرف ممّا أتألّم. أنتظرُ وكأنّني لا أنتظر أحدًا، لا ضوءًا ولا موتًا. يختلطُ عليّ الوقت فلا أحدده. متعبٌ منذ اللحظات الأولى للنهار. متعبٌ حتى اللحظات الأخيرة للّيل. ما نهضتُ يومًا رغبةً في النهوض ولا أغمضتُ عينيّ يومًا رغبةً في النوم. كلّ ما حدث إنّما بالصدفة حدث. وكلُّ ما يحدث بالصُّدفة يحدث. إنّني من عينيّ في عتمة خالصة، ومن رغبتي في انطفاء داخليّ. لا أرغب في البقاء ولا في الرحيل. حائرًا، مكفهرًّا، واجمًا، حادًّا، شارخًا كالصرخة لا أدرك إن كنتُ يبرّحني الضجرُ أم الأرق. أنتظر لكنْ من غير رجاء. أوراقي أمامي وأمامي أيضًا خوف كثير، يأس كثير وصمتٌ جفّ من كثرة صمته.

أكتبـها الآن، تسيلُ كالدم بين أصابعي، يشرقُ وجهها وراءَ الكلام، داخلَ الكلام يورقُ جسدُها كشجرة. الآن تحفّ الكتابة جلدها حفًّا رهيفًا، تعركُ جسدَها عرْكَ الطيب وتترشّفه كالنسغ الدافئ. الآن تتبرّح الكتابة بـها، تتلذّذ بجلدها الرطب وتنْعَمُ بجروح جسدها وشمسه، بأفيائه وظليل ثناياه. الآن ألامسها عبر الكتابة، أختلجها، نغتلم

ونتوارى، داخل جلدنا، جلدنا الآخر. الآن أصبحَ للغة رحيقُ جسدينا يتفتّحان كزهرة السر، ينغلقان كالبرعم الوحيد للّيل.
أذكرها، كما لو أنّني أراها كما رأيتـها طوال ما رأيتـها كذكرى امرأة كانت. الوقتُ الـميْتُ يـجعلني ميْتًا بدوري، تغيمُ عيناي، وأبصرها، كالـميْتة أبصرها، أرتبكُ وأجد نفسي عاجزًا حيالـها، حيال جسدِها الـمدّد ورقادها. ولـم تكنْ لتـموت، تُغمضُ عينيـها أو تفتحهما كالـميْتة لكنْ من دون موت. تحيا الـموتَ من غير أنْ تـموتـه مستسلمةً لنوام شفيف وغامض. وحين تُغمضُ عينيـها فإنّما لوقت طويل كنتُ فـي خلالـه أحدّق إليـها بلا ارتواء. أحدّق إليـها كما لو كانت غائبة عنّي وعن النظرات التي لا تني تحتويـها. كانت عيناي تلتئمان على مساحة جسدها الـمتراخي فـي صمتـه، فـي عزلتـه. وتروحان تُبرزان أسرارها، خفايا جسدِها التي كأنّني أبصرها أوّل ما أبصرها. آنذاك كنتُ أرنو إليـها بـهدوء، أغتابُ نظراتـها إلـيّ والخجل الذي كنّا نتقاسمُه حين تتلاقى عيوننا. كان لنعاسها سطوةٌ كالـموت، لونٌ كلونه، وسطوع كسطوعه. حتّى إنّني كان يـجرفني كالـماء فأستسلمُ لـه لرقّتـه وعمقه الـمختلج كالحمأة. كان نوامها يـجعلها عارية أمامي ويـجعلني رقيقًا كالطيف، وكالطيف بلا جسدٍ وماضٍ، بلا ذاكرةٍ وحواسّ، أجوف الرغبات مـمتلئًا بـها، بنومها الذي لـيس كالنوم، بنظراتـها الغائبة. ولـم يكنْ يؤلـمني أن أمسي أمامها مجرّدًا من رغباتـها. كانت هي كلّ ما أطمح إليـه، وكذلك غيبتُها الأرقّ من الضوء. كان جسدها آنذاك يظهرُ بنفسه، لنفسه، كان هو الجسد وظلّه، فـي استكانتـه وترنّقه الداخلـي، فـي رغباتـه الـمحترقة والـمنطفئة.
وفـي نوامها الغامض كان يصفو وجهُها يـختطفه خدرٌ رقيق عذبٌ عذوبةَ الضوء الذي كثيرًا ما التـمعتْ بـه عيناها. كان قبسٌ من فرح وربّما أكثر، يبرق فـي وجهها، لكنّ قبسًا من ألـم، من كآبة، كان أيضًا يساكنُ قسماتـها. فرحةً كانت لكنْ على كآبة. كما كنّا كلانا فرحين وكئيبين بجسدينا، بحضورهما وغيابـهما، باحتراقهما وتلاشيـهما. وفـي غفوتِها كانت تتجلّى بوضوح غرابةُ وجهها، غرابةُ القسمات التي جعلت الوجه بقعةً غائمةً لذكرياتٍ وأحاسيس وجروح حتّى كأنَّ وجهها لـم يكنْ إلاّ رجعًا لوجه غائب، لوجه غارق فـي الـماء يطفو عليـه كزهرة. كان نوامُها آنذاك نوام امرأة راقدة بنفسها، برغباتـها، جامدةٍ لا يطرفُ جفنها ولا يـخفقُ جسدُها حتى لتستحيل بقعةً من اللـيل، من الضوء الـميْت. ولـم تكنْ تتـموّج، تُغمضُ عينيـها كي يشتعل ما يترسّب فـي عينيـها، فـي عمقهما، فـي الداخل، كي لا يغادرَهما نورُهما، عتـمتُهما. تُغمضُ عينيـها لتأسرَهما، لتصبحَ لـيلَ عينيـها. آنذاك أيضًا كنت أنامُ نومَها، مفتوحَ العينين غاربًا. ومن كثرة ما أرنو إلـيـها كنتُ أغفل عمّا يـحيط بي، ناسيًا نفسي فـي ضوئها، فـي عتـمتـها. وكنت أستيقظُ منها كما من اللـيل، من نهار غابر لا أذكره إلاّ لـمامًا.
وكانت تغيبُ غيبةً تلو أخرى، بخفَّة ورأفةٍ لـم تكونا تغادرانها. وكان يـحلّ علـيّ نوامها كالظل، أفـيء إليـه ويـخترقني كصمتـها، كالضوء الذي ينبثق من عينيـها الـمغمضتين، ذاك الضوء الذي

كثيرًا ما لفحني، جارحًا عينيّ من فرطِ التماعه، من شدّة تبلّله بالحبّ. كان إحساسي بها آنذاك أعمقَ من مرآي إليها. وما كانت تكتملُ إلاّ تحت ناظريّ، في احتدامِ شغفي بها وتحرّقي إليها كما لو أنّها غائبة. كأنّ الهجسَ بالجسدِ هو ما يصنع الجسد، ما يمنَحُهُ أَلَقَهُ الداخليَّ، تفتُّحَه وتبلُّجَه. وكان إحساسي بجسدها يجعله يبدأ من غير أنْ يبدأ، وينتهي من غير أنْ ينتهي، كان إحساسي به أعمقَ من كونَه جسدًا تحت ناظريّ، بين يديّ. كان يشتعلُ وينطفِئ، ويضيء ويتّسع كالليل. وكنّا حياله نبدأ وننتهي في وحدةٍ تجمع أشلاءنا، اشلاءَ روحنا التي ما كانت تلتئم. كنّا نرغبُ رغباتنا، رغباتِنا التي أضحت لزجة كالدم، نقيّة كالهواء، مترنّقة كأول العشيّ. وكنتُ أرغب رغبتي أيضًا وترغب رغبتها وكنت منها في جسدها ومنّي كانت في جسدٍ وجسدًا كنّا، نرغبه لنرغبَ نفسَيْنا وحيدين في جسدين، بلا جسدين، نخلقهما ونتوهمّهما، نخلقهما من غير توقّف، من شوقنا إليهما، من رغبتنا المستعرة في ما يجسِّدُ ما لا يتجسَّدُ فينا، ما يخترقُنا ونجهله، ما يخالجُنا ونخافه.

لكنّها لم تكنْ لتموت، تحيا الموت من غير أنْ تموته فما إنْ تفتحَ عينيها حتّى ترجعَ إلى سابق وقتها وكأنّما لم تنمْ نوامها الذي يماثل الموت، كأنّما غيباتُها توقظ حواسّها فتتفتّح وتتوهّج. لمْ يكنْ نومها إلاّ إغراقًا في يقظة ما، في انخطافٍ يجعلها ترى ما رأته من غير أنْ تبوحَ به عجزًا ربّما وربّما إغراقًا في غموضها الذي لم يُهيّأ لها أنْ تَكْنه سرّه، كلَّ سرِّه. وكان ذيّاك النوامُ نوامنا أيضًا في هنيهاتٍ ما كنّا ننتبهُ لها. كنّا كلانا نحملُ الموتَ ذاتَه من دونِ أنْ نموته. كأنّنا كنّا واحدًا متلاشيين بعضنا في بعض، جسدًا لجسدٍ وروحًا لجسدٍ. وكثيرًا ما راعنا ذاك التشابه، ذاك التداخلُ الذي كنّا نمضي فيه من دون رجعةٍ. كأنني وجدت لأكون جسدَها، ليله وماءه، تمامًا كما كنت جسدي الذي كانت إيّاه.

آنذاك لم أكن في حاجة لأنْ أحدّق فيها ولا هي لتنظر إليّ. كنّا في تلك الأوقاتِ لا تنبس شفاهنا. أنظر إليها فقط وتنظر إليّ ولم يكن يتناهى إلينا ما يتناهى عادةً. ومن شدّة ما نظرتُ إليها ونظرتْ إليّ بتنا لا ينظر واحدنا إلى الآخر. ربّما لم تعد لدينا حاجةٌ لأنْ نتبادلَ نظراتنا. كأنّنا توحّدنا وانتهينا جسدًا في جسد، روحًا في روح.

وفي أحيان كنّا نحدّق كلانا في اتجاه لم نكنْ نحدّده ولا ندركه. يمضي ليلٌ وآخر، نهارٌ وآخر فيما نحدّق كلانا في الاتجاهِ عينه. لكن لم يكن من طريقٍ لنرحلَ ولا من طريقٍ ليأتي أحد. كنتُ أنتظر لأنّني ما كنتُ إلاّ لأنتظرَ. وكانت تنتظر لأنّها

ما كانت إلاّ لتنتظر. كان علينا أنْ ننتظرَ لأننا كنّا كلانا في سطوة صمتنا، في سطوة حبّنا الصامت. لكنْ لم نحدّد من ننتظرُ وماذا ننتظر وإلى متى. هل كنتُ أنتظرها طوال ما كنّا معًا أمْ كانتْ تنتظرني من غير أنْ تعرفني طوال ما عرفتْني وعرفتُها؟

من كثرة ما عرفتها وعرفتني وقعنا في عتمة الذاكرة، في العتمة التي تنتهي في عتمةٍ أشدّ. ومن فرطِ ما اقتربتُ واقتربتْ أصبحنا على حيادٍ من جسدينا. وكنّا آنذاك نذوب كالشمع ونقع في وحشتنا، في وحشة الجسدين حين يقتربان من نسغهما.

وكم كان يخيفنا ذاك التماثلُ، ذاك التشابه، يُرجعان إلينا ذكرى موت كان ولم يكن، ذكرى غياب غبناه ولم نعد نذكره.

لكنّنا سرعان ما كان واحدُنا يرجعُ إلى وحدتـه، إلى وحدةِ الآخر، إلى ألـم الانفصال الذي كانت تزيده الوحدةُ حدّة. يصبحُ الواحد فـي ذاتـه ما كانه فـي الآخر لكنْ منفصلًا عنه مألومًا ومجروحًا بـه، بحضوره وغيابـه معًا.

ولطالـما بحثت فـي جسدها عن رغبةٍ كانتْ تخفيـها وكنتُ بدوري أخجل من البوح بـها. كان لجسدها دفـء كدفـء الرحم الأولى التي ما زلتُ أذكر ماءها وعتمتـها، عتـمتـها اللزجة التي كثيرًا ما تخضّبتُ فيـها. فـي تلك الناحية القاتـمةِ من جسدها كان ليلـي الأوّلُ الذي كنت فيـه من قبل أنْ أكون، كان ضوئي الأوّل قبل أن التـمسَ ضوءَ العالـم. فـي تلك العتـمة لـم أكنْ أحتاج إلى ما أحتاج إليـه الآن، ما يُخيّل إلـيّ أنّني حيبتُه من غير أن أذكرَه. لكنّني ما برحتْ عتـمةُ الرحم فـي عينيّ، فـي فمي، فـي يديّ. ما برحت تلك العتـمة تنتـهبني فأمسي كالظلّ الـهائم الذي فقد مآلـه.

كانت ترهبني عتـمتها. ليلُها الذي كانت تغرق فيـه، ينسلّ كالضباب مُرخيًا مطارفه على كلّ ما يـحيط بـه ويأسرني. وكنت فـي ليلـها أنثني على نفسي، على نفسها قريبًا من هاويتنا، من هاوية رغبتنا والشهوات. وكنّا ألفْنا الـهاوية حتّى إنّنا لـم نعدْ نحتاجُ إلى ضوءٍ من الخارج. أغلقنا على نفْسِنا ومضينا فـي اغتياب كلّ ما من حولنا متّحدين كالصرخة وصداها، منفصلَين كالعين وما تراه. آنذاك ما كنتُ إلاّ لأصبح وجهها الآخرَ منبثقًا من عتـمتنا. وما كانت هي إلاّ لتـمسي أيضًا وجهي الآخر الذي افتقدتـه طويلًا. وحين ننغلقُ على نَفْسِنا كنّا ننأى أكثر فأكثر عن صخبنا مستسلمَيْن لصمتٍ عميقٍ كالـموت، مضيء كالـموت الذي عجزنا عن اعتياده. وكنّا نظنُّ كلَّ نـهارٍ نـهارَنا الأخير. لكنَّ اللّيل لـم يكن يبرحُنا جاعلًا النهار ظلًا للنهار الذي يلـيـه. لـم تكن هي أمامي لأخرجَ إليـها، ولـم أكن حيال عينيـها لتخرجَ إلـيّ. كنّا معًا نخرجُ إلى وهمنا ومعًا نلجُ عتـمة الوهم الذي لـم يكن إلاّ نحن، متّحدين، منفصلين، مألومين ألـمَ انفصالنا، ألـمَ الرجوعِ عنه. كنّا معًا لنلج عزلتنا، منتـهى عزلتنا عن العالـم، عن جسدينا، عن رغباتنا الـمستعرة والخاويةِ فـي الوقت نفسه. ذكرًا وأنثى كنّا، ذكرًا وأنثى كنتُ، أنثى وذكرًا كانتْ.

ولـم يكنْ يُخيّل لـي موتُها إلاّ لـيـخيّل إلـيَّ موتي حيالَ عينيـها. كان موتُها الذي لـم تـمتْه موتي الذي لـم أمتْه بدوري وربّما موتي الذي متّه غابرًا ولـم أعدْ أذكُره. تُغمضُ عينيـها، تفتحُهما، تُطرف بـهما. نظراتُها تتكسرُ بخفرٍ من غير أنْ تثبتَ فـي ناحيةٍ ما. تنظرُ كأنّما من دون أنْ تنظرَ وفـي هدوءِ النظرات وبرودِها كان يشيعُ قلقٌ ما، أرقٌ غامضٌ ومزيـجٌ من نعاسٍ وخوفٍ وملل. وتحت وقع نظراتِها تلك كنتُ أحفظ وجهي وعينيّ وكانت هي تحت ناظريّ تحفظُ صورتـها، صورتـها التي ما برحتْ محفورةً فـي عينيّ. وحين تستسلـمُ لغفوها كانتْ عيناي ترعيان نومها، خدرَها الـمتلاشي كالضوء.

لـم أفتحْ عينيّ إلاّ لأغلقَهما عليـها، على سراب وجهِها، كأنّني لـم أغلق عينيّ إلاّ على ضوئها، ضوئها الذي بلّلني كالعرقِ، كالـماءِ الراشح من أجيج رغبتـها. ضوءًا أضحتْ فـي عينيّ وما برحتْ ذاك الضوءَ الذي يملؤهما ولا أراه. وما برح وجهُها ذاك الوجه النقيَّ الغائمَ القسمات يندلع كالظلّ ويـهبّ كالنسيم. كأنّـها لـم تكن إلاّ لأنّني لـم أكن، كأنّني لـم أكنْ إلاّ لأنّـها لـم تكن، كأنَّنا غبنا كلانا معًا، كأنّنا احترقنا ولـم نترك اثرًا يدلّ علـينا.

ولـم تكنْ لتنتظرني ولـم أكنْ لأغيب كي تنتظرني. كان انتظارُنا واحدًا كخوفنا، كالقلق الـمختلج بنا أبدًا، كالرغبة وعدمها. لكنْ لـم نكن ننتظرُ أحدًا. كنّا ننتظرُ لننتظرَ فقط. منكسرين وخائبين. كان انتظارُنا بدايةَ صمتِنا، نهايةَ صمتنا. كانَ الناحية الأخرى للـموت الذي متناهُ فـي السرّ، للعزلة التي

جعلتنا غريبين فـي العالـم، غريبين عنه. كان علـينا أنْ ننتظر هكذا. نفتحُ عيوننا وننتظر. نغمضهما وننتظر. كان الوقتُ آنذاك بطيئًا، بطيئًا حتّى أنّـه لـم يكنْ يمضي وكأننا ما كنّا نلتـمسه ونغرقُ فـي هاويتـه. كنّا خارج الوقت آنذاك، خارج اللـيل والنهار. ولـم ندر كم انتظرنا، كمْ مكثنا ننتظر بلا رجاء. كأنّما كنّا الانتظارَ، الانتظارَ نفسه. وكانت هي تحوكُ انتظارها وكنتُ أنا وحدي وكنت بـها وكانت بي وكنّا معًا صامتَين صمتَنا السحيق.
ولـم تكنْ تحتاجُ لأنْ تتكلمَ، لأن تخرجَ عن خرسِها الذي كان ينمو فـي الداخل. ما كانتْ ترغبُ فـي أنْ تقولـه فاق الكلامَ. ربّما كانتْ عاجزةً عن قولِ ما رغبت فـي أنْ تقولَه ولـم تقلْه يومًا. ويُهيّأ إلـيّ الآن أنّ ما رأتـه سرًّا، مفتوحةَ العينين، مغمضةَ العينين كانَ يدفعها إلى الصمت، إلى الخرس التامّ. وكان يُهيّأ إلـيّ أيضًا أنّـها تسمع أصواتًا لـم تكن قادرة على أنْ تدركها. وكانت تضطربُ اضطرابًا، يترنّقُ وجهها من غيرِ أنْ تنبسَ شفتاها. بل تصمتُ وتصمتُ، غائبة، مفتوحة العينين مغمضةَ العينين. ولـم يكنْ ضوءُ النهار يـجرح صمتـها ولا قتامة اللـيل.
لـم تكنْ جسدًا مجرّدَ جسد بين يديّ. أجملَ من جسدٍ كانت، غامضةً ومشرقةً. عراؤها على قدْر كبير من الصفاء العميق الكامد. وبياضُها الوارفُ مزيـج من زرقتين،

زرقة البحر والسماء. ولـم يكن عريـها لـيفضحها. كان ذاك العري يضفـي علـيـها مسحة غامضة. كان عريـها جروحًا من شدّة انبلاجه، يرتجف ويرتعشُ دومًا، متفتّحًا كالشهوة. كان عريـها يـختصرها ولـم تكن تحتاج إلى ما سواه. كان هو ماضيـها الذي لـم تعدْ تذكره وكان أيضًا غدها الـمجهول الذي لـم يكن لـيأتي. عريًا بالغًا كان، عريًا فـي مقتبل يُنوعه. نضرًا وخفرًا. وحين أمام الـمرآة إنّما كشمسٍ يلتـمع، كشمسٍ بيضاء، تـملأ الـمرآة وتخترقها.
وكنت كلّما رنوت إلـيـها عارية يفاجئني عريُها كما فـي نظرتي الأولى إلـيـه. وبين نظرة ونظرة كان يصفو ويتجلّى من غير أنْ ينتـهي. وكنتُ كلّما أغمضت عينيّ انبثق فـيـهما كالـينبوع. كأنّني ما رأيتُها إلاّ عاريةً، عاريةً فـي النهار، فـي اللـيل، فـي أحلكِ عتـماتـه. كان عريـها يسمو بجسدها، بأحاسيسه واختلاجاتـه. كان يرقى بجسدها الآبدِ الـمصطخب بغرائزه النقيّة مغدقًا علـيـه فسحة من الغموض الآسر. وكنتُ أرنو إلـيـها عاريةً من دون أنْ يطرفَ لـي جفن. أنظر إلـيـها من دون ارتواء.
غير أنّي ما برحت أرنو إلـيـها فـي غيابـها دومًا كما لو أنّني أنظر إلـيـها نظرتي الأولى.
وكم حمل عريـها ذكرى عريـها الأول، عريـها الأخير. كم فاحتْ منه ألوانُ الفردوس الأوّل، الجحيم الأوّل. كان عريـها من النقاء حتى لـم يكنْ لتبصره عينٌ وتحتويـه يدان. أرقَّ من الرغبة وأعمقَ من الإثم. نديًّا وجروحًا. عذبًا ومكتدرًا. أزلـيًّا لكنْ من ضوءٍ وماء. عراءَ الفجرِ الأولِ كان، عراءَ الغسقِ الأوّل. لا عري أنثى ولا عري ذكرٍ. كان لـيكون بذاتـه، نقيًّا ومـختلجًا بذاتـه، بضوئه وعتـمتـه.
لـم يكن عريـها إلاّ لنكون معًا أمام البحر، أمام زرقتـه وزبده. كان عريـها هو الثمرة التي تقاسمناها فـي الضوء، ثمرة بدايتنا، ثمرة نهايتنا. لكنْ لـم تكن حديقة ولا شجرة. كان عريـها هو الحديقة والشجرة!
وكنت وما برحتُ أستيقظُ من عريـها كما من حلـم لـم أحلـمه، من حُلـم كنتـه أنا نفسي. أمامه كنتُ أنخطف مـمتلئًا بندوباتـه وجروحه.

أعرف أنّني وحدي الآن. أراها أمام عينيّ، في عينيّ، كأنّها لم تغادر ولم تترك ضوءًا وراءها. الزرقةُ كامدة أمامي، عيناي متعبتان. الغرفة خاوية خوائي الروحي. الأوراقُ أمامي أيضًا، بياضُها يشتعل بهدوء. الذكرى وحدها توقظ حواسّي التي ماتت. الذكرى تنفخُ فيّ ضوءًا يبدّد عتمة انتظاري. ذكرى جسدها، ذكرى عريها الذي كان وما فتئ يكون كلّما أغمضتُ عينيّ، كلّما فتحتُهما. إنّني هنا لكنْ على قلقٍ، لا أعرفُ متى جئتُ، متى أغادر. أعرفُ فقط أنّني أكتبُ. أكتبُ لأنقذ نفسي من الهاوية التي ما برحت تحاصرني، من الهاوية التي تلتصق بي كظلّي.

أبصرها الآن تطفو على الماء كزنبقة يحملها الماءُ، يغمرها حتّى يترقرق بياضها في ترقرق الماء، منحّلًا فيه، في زرقته البيضاء. عاريةً كانت تطفو، متراخية، مستسلمة للماء الدافئ ممتزجًا بحمرة الشمس الغاربة. كانت تؤثرُ أكثرَ ما تؤثر النزول إلى البحر وقتَ الغروب. تظلُّ في الماءِ حتّى تأفل الشمسُ ويحلّ أولُ الليل فلا تنسحب إلاّ في ملسِ الظلام حين تلامسُ العتمةُ الماء. ومن الأصيل إلى الغروب في الحمرة التي يغتسل بها الأفق كانت ترقد على وجه الماء الكامدِ الزرقة ينعكس على وجهها وعلى طيفِ جسمِها العائم الشعاعُ المائل الحمرة. آنذاك كانت كأنّما ترقدُ رقادًا، طافيةً، مغمضة العينين، مستسلمة لحفيف الموج الطفيف، متنعّمة بالضوء القاتم الذي يلفظُه النهارُ في آخره.

وكانت في احتدام الحرّ تلبثُ وقتًا طويلًا في الماء، من الشفقِ إلى غسق الليل إلى غشوته. وكان سرعان ما يغمرها اللّيل الوافر إذ يلفُّ الماءَ ويجنحُ على الأفق ماحيًا كلّ ما من حوله. وكانت هي طافية بين عتمتين تفتح عينيها لتحدّق في الظلام مستسلمة كعادتها لحركة البحر. ولم تكن تصعد إلاّ حين يأخذها الملل، وقليلًا ما كان يأخذها في الماء.

وفي اللّيالي الطلقة كانت تتنسّم الضوءَ الخفرَ للقمر السامر. فما إنْ يطلع القمر ويتّسقَ بهدوئه حتّى تنتشي في الماء ممتزجًا بالشعاع الفضي يبعثه القمر في كلّ صوب. وكانت كأنّما ترقدُ على وجهِ الضوء إذ ينساحُ على صفحةِ الماء فيبين وجهُها وقليلُ جسدِها. لكنّها لم تكن تلبثُ أن تتقلّب في الماء معكّرةً صفحته الصافية.

وكانت حين يضطرب الموج، تضطربُ بدورِها مستسلمة أيضًا لصخبه فتنقلبُ قلبةً تلو أخرى واهبةً جسدها العاري للماءِ المرتفع، لحركته التي لا تهدأ. وحين تتعبُ كانتْ تتراخى للموج فيتجاذبها حتى تنسحبَ إلى الرمل. وعلى الرمل الرطبِ كانت تستسلم للزبد الذي يخلّفه الموج كأثرٍ سرعان ما يزول.

وفي الزبد كانت كأنّما جسدُها يرغو رغوه الأبيضَ النقيّ تتمرّغُ فيه كما لو أنّها تتمرّغُ في الضوء وحين تنهض من الزبد فإنما عذبةً تنهضُ عذوبةَ فجرِها الأول، ليلها الأول.

وحينًا كانتْ تؤثرُ أن تنزل إلى الماء في الفجر قبل أنْ تبزغ الشمس وينبسط شعاعها على صفحة البحر. في الفجر كان يتجلّى عريها إذ يختلط في البياض الأوّل المالئ الأفق. وكان جلدُها كأنّما يرشح بنقاءٍ هو نقاءُ أوّلِ الصبح. بيضاء صافيةً بياضَ السماءِ وصفاءَها. وفي الصمت الكليّ المرين على الشاطىء لدى الفجر كان يحلو لها أنْ تحدّق طويلًا في آخر الأفق من غير أن ترى ما يمكنُ رؤيته في ذاك الضوءِ المنقشع. كانت على الرمل عند انكسار الموج تجلسُ غير آبهةٍ للموج وزبده. وحين تتمدّد على ظهرها كانت عيناها إذ ترنوان إلى الأفق تلامسان جسدها. كانت نظراتها تعبر ظاهر جسدها لتتشبّع من وافر البياض، من الأسود المالئ أسفل الحوض

يغسلُه الزبدُ من حينٍ إلى آخر.
نجمةَ الصبح كانتْ، نجمةَ الليل ولـم يكن الـماءُ إلاّ لـيُضفـي على غموضها غموضًا. كان الـماءُ سرًّا من أسرارها تتلاشى فيـه وتطفو على وجهه وحيدة وكالـمَيْتَةِ تتراخى مُغمضةَ العينين. كانت فـي الـماء تلتـمسُ أقصى عزلتـها، أقصى توحّدها بجسدها، يـحيط بـه الـماء ويغرقه. كانت تتوارى فـي الـماء يـختلط بياضها فـي الأزرق فلا يبينُ من جسدها إلاّ طيفٌ واهٍ. فـي الـماء كانت تـموت من دون موتٍ، تحيا الـموتَ فـي جسدها متلاشيًا متـهاويًا كزنبقة وحيدة. الـماء يُرجع إلى جسدها ذكراه الأولى، ذاكرتـه الـمجروحة، ضوءَه الأوّل، عتـمتـه الأولى. وكانت حين تتلاشى فـي الـماء كأنّما تغيبُ غيبةَ الـموت، غيبة الرغبة، ناسيةً كلّ شيء، حتّى جسدَها الـمتفتّح فـي نداوتـه. ربّما هي الزرقةُ حين تـمتزج فـي بياضِ الأفق، فـي الضوءِ النقيّ، فـي العتـمة الأولى للّيل، تحلّ فـي جسدها ماحيةً حواسّها، جاعلةً عريـها بقعةً نقيّة وغائبة، غائبة كما لو أنّـها لـم تكنْ، كما لو أنّـها لـم تتجسّد.
حين تخرج من الـماء، كالطفلةِ، كالـمرأة الطفلة، تخرجُ إلى ضوءِ العالـم، إلى ضوءِ فراغه، إلى ضوءِ وحشتـه الـمقفرة. كانت تخرج بجسدِها القليل الـمغسول بالـملح والزبد، بالزرقة الناصعة. ولـم تكنْ تتكلّم. كانت تنظر فقط مُلقية على ما من حولـها نظراتٍ كأنّـها الأولى، نظراتٍ ملؤها الحيرة، ملؤها القلق. وكانت نظراتـها لا تلبث أنْ تنكسرَ فـي وضح العالـم، تحت شعاعه الباهت.
نجمةَ الرغبةِ كانت، نجمةَ الرغبة الـمحترقة، الرغبةِ الـمنطفئة. تحتدمُ وتخبو كالنهار الذي ما إنْ يرتفع حتى يأفلَ لدى الشفق. كان لجسدها نهارُه ولـيلـهُ يتوالـيان حينًا ويـختلطان حينًا. وكانا حين يـختلطان يستحيلُ جسدُها واحة للضوء والظلّ، للنقاءِ والعتـمة، للـماءِ والنار. وكانت غالبًا ما يتأجّج جسدُها بمائه، بظلالِه وشمسه.
غير أنّ جروح جسدِها كانت تجعلـه ناقصًا فـي عينيـها. كأنّـه فـي عينيـها لـم يكتـملْ يومًا لضآلتـه ورقّتـه، لجروحه، لآثارِ الجروح التي ما برحت تـملأ عينيّ ويديّ. وفـي وطأةِ اشتعالـها بالرغبة كانت الندوبُ كأنّما تتفتّح لـينساحَ الأحمرُ الـيانع مـمزوجًا بالـماء والعرقِ آنذاك كان الدمُ يـخضب وجهي. لـم يكنْ فـي وجهي من جرحٍ لكنّـه دم جروحها التي التأمتْ ولـم تلتئمْ. دمي الذي لـم أنزفْه. دمُنا الذي نزفناه معًا، دمُ آثارنا، دمُ الضوء الذي أُغدِق علـينا.
وكان يمكث جسدها كئيبًا بندوبـه، مكتـملًا فـي نقصانه، فـي خطيئتـه الأولى تلك التي لـم يرتكبـها. وكنتُ يمسي جسدي كئيبًا بدوره، كئيبًا كآبةَ جسدِها، كآبة الجسدِ الـمُغربِ فـي إثمه ونعمتـه. كانت الكآبةُ الثمرة الوحيدة لجسدين تداخلا حتّى أصبحا سماءً لـموت واحد. كان جسدها مرآةً لـي وجسدي مرآةً لـها. جسدًا لجسدي كانت وكنتُ ثمرة جسدِها الذي لـم يـحنْ فـي نقصانه. وكمْ كانا يكتئبان حين ينفصلان، يصبحُ الجسدُ ذكرى الجسدِ الآخرِ والجروحُ ذاكرتـهما كلـيـهما. كم كانا حين ينفصلان يسترجعان هواءهما والضوءَ الذي كثيرًا ما انتابـهما. كم كانا يسترجعان براءتـهما الأولى الـممزوجة بالشهوة، بالإثمِ والكآبة. ولـم يكونا ينفصلان إلاّ لـيرجعَ كلُّ جسدٍ إلى بروده، إلى وحدتـه السحيقة. لكن لـم يكونا إلاّ لـيبدآ معًا لـيتلاشى الجسدُ فـي الآخر تلاشي الظلّ فـي الضوء.
فـي الألـم كنّا واحدًا، فـي الرغبة، فـي احتدامِ الرغبة وانطفائها. ومن شدّةِ ما غرقنا فـي الرغبةِ أمسينا بلا جسدين، مجرّدين من رغبتنا الشاحبة تلك التي لـم تكتـمل. ولـم يكن نقصانُ الرغبة إلاّ سرًّا من أسرارها التي جمعتْ بيننا وحالتْ دون اكتـمال جسدينا. ولـم يكن لـيرأب نقصاننا ذاك،

نقصانَ رغبتِنا، إلاّ موتُنا الذي متناه ولـم نمتْه، وحدتُنا التي جعلتنا ألـيفين وغريبَين، منفصلَين ومتداخلـيَن.
كأنّ جسدها لـم يكتـمل إلاّ حين غاب فـي ذاتـه. كأنّـه لـم يكتـمل إلاّ حين غادرتْ، حين عجزتْ عن أنْ تـموت مفتوحة العينين. كأنه لـم يكتـملْ إلاّ حين أصبح طيفًا فـي عينيّ، فـي جسدي الـمتوحّد بنفسه. كأنّـها لـم تكتـمل إلاّ حين محت كلّ آثارها وراءها، حين لـم تترك سوى رجع عريـها.
هكذا غابت، هكذا غابت فـيّ، من أمام عينيّ، فـي عينيّ غابت. هكذا بتّ وحيدًا بـها، غائبًا غيابَها بي، أكتبُ لأنقذها من العتـمة، لأنقذَ نفسي من عتـمة الذاكرة. أكتبُ فقط لأرأب نقصاننا ذاك الذي لـم يكن لـيكتـمل إلاّ فـي الـموت، فـي الـموت الذي لـم نمتـه.
كان علـيـها أنْ ترحل كي أدركَ حضورها فـيّ، غيابي فيـها. كان علـينا من شدّة ما تشابـهنا أنْ نقعَ فـي هاوية الاحتلام. سأمًا سئمنا طوال أوقاتنا الأخيرة. سئمنا رغباتنا، سئمنا وحدتنا، سئمنا الحياة نفسها، الـموتَ نفسه. راحت شهواتنا تأفلُ بـهدوء بعدما احتدمت احتدامًا حارقًا، بعدما أحرقت جسدينا ووشمتـهما بالندوب. كأنّ الرغبات التي اعتـملت فينا وتأجّجت لـم تكن لتكتـمل، لـم تكنْ إلاّ لتظلَّ أبدًا مستحيلة كحياتنا، كحياتنا التي عشناها وهمًا، كموتنا الذي عشناه والتـمسناه ولـم نمتـه. كان علـيـها أنْ ترحل كي يلتئمَ عراؤها، عراؤها الأنقى من ضوءِ النهار. كان علـيـها أنْ ترحل كي لا تـموت، كي لا نموت معًا موتنا الذي لـم نجرؤ على اختياره.
وكنّا كلّما استعرت شهواتنا أقبلنا على خواء كثير. كنّا انتـهينا معًا فـي حال من القلق، من ألأرق الذي يقضُّ لـيلَنا. كانت ماتت فينا رغباتنا وعرفنا سقامات وحدتنا واعترانا الحبُّ مـمزوجًا بالـموتِ والشهوةُ مجبولةً بالسأم. ورحنا نلتـمس خيبتنا، خيبةَ جسدينا، خيانة الجسدين اللذين لـم ينهضا من خوائهما. وفـي وقت أصبح لقاؤنا كالاحتلام ننزلُ وهدتـه منفصلـين جسدًا عن جسد، وحيدَين مغتلـمَين كلًا بجسده. وكنتُ أقبل إلـيـها كمن يقبل إلى نفسه وحيدًا. وكانت كذلك تقبل إلـيّ كما لو إلى نفسِها تقبل فـي الـمرآة. آنذاك كانت تنغلقُ على جسدها، على الأحاسيس التي تتخبّط

فيـها، من غير أن تبوح بـها. وكانت كثيرًا ما تحاجزني عن دخيلائها، عن سرّها الذي ما برح سرًا.
أذكر الآن كيف بدأنا، كيف انتـهينا. إنّني الآن على هُنيـهة من عريـها. الآن تستيقظ فـيّ، فـي حواسي. الآن تعرُكُ يداي عريـها. يفوحُ عرفُ شهوتـها فـيّ، أرقب فـي عينيـها غبطة تتـموّج تـموّجَ جسدها حين يـحينُ قطافه، حين يـهتزُّ اهتزازَه العميق. الآن أتحسّس ماءها، نسغَ حيائها، رغوَ بياضـها النقيّ. الآن أحسّ الفراغ الذي كان يشيع فينا، فـي تراخي جسدينا، فـي نشوتـهما. الآن يبلّلنا العرق، عرق شهوتنا، يبلّل سريرنا، ظلالنا التي لـم تغادر السرير.
كم كان عظيمًا ذاكَ الفراغُ الذي سرعانَ ما يـجعلُ الرغبة مستحيلة. كم كانت خاطفة تلك اللحظة التي ما إن ترقى بنا حتّى تتـهاوى فنتـهاوى معًا إلى جحيمنا. كنّا فـي رعشة واحدة نرتفع ونسقط، يـحترق جسدانا وينطفئان. وكنّا إلى وحشتنا نقبل، إلى فراغ يعقُب امتلاءنا الخاطف، إلى فراغ يشبـه امتلاءنا فـي استحالتـه ونفاذه.
وكم كانت تحاول أنْ تأسر تلك الرعشة وأن تتجاوزها إلى ما وراءها. تغمض عينيـها كي لا تفقد نثرةَ من ضوئها وتصمتُ كي تحفظ بُرحاءها، برحاءَ شهواتـها الـمستعرة فـي الداخل. وكانت شهقاتـها ترتفع بصمتٍ جارح فـي مكنون ذاتـها فـيخفُق جسدها خفقًا ثم لا يلبث أن يتراخى بـهدوءٍ

منحلًّا كخيط الـماء. وحين تفتح عينيـها بـهدوء أيضًا كنت أضطرب حيال نظراتـها الغريبة، السقيمة والبريئة. كانت نظراتـها مشبعة بالأحاسيس الغامضة، بالذكريات، باللّذة، بالأرق، والخوف. نظرات يانعة كانت ومثقلة، كئيبة ونضرة. كانت كأنّما تنظر نظراتـها الأولى إلى عالـم تجهلُه، إلى عالـمٍ أصبح كالذكرى.
وكانت كلّما راقت عيناها وأبرقتا بحبّاتـهما الخفية غَمُضَ وجهُها وترنّق صفوه. كانت لا تلبث أنْ تكتئبَ اكتئابـها ذاك الذي غالبًا ما يغشاها عقب اختلاجها. تتكوّم على نفسها على السرير محدّقة فـي بياضه، فـي بياض قدميـها. وتقضي وقتًا لا تحرّك يدها أو وجهها. جفناها يرفّان فيما هي تحدّق فـي البياض الذي يـحيط بـها. كانت فـي نزواتـها الغريبة وسويدائها ومزاجها الـمضطرب امرأة خاصة، امرأة غامضة، تحيا لكن من دون حياة، ومن دون موتٍ تـموت. ولـم تكن حياتـها الـهادئة إلاّ ظلًّا لـموتـها الذي كان ينمو فـي ثنايا روحها، فـي جروح جسدها.
وكنّا فـي أوقات حالكة من عزلتنا، آخر عزلتنا، نلتمس أقصى سأماتنا. نُمسِي نحدّق واحدنا فـي الآخر تحديقه فـي وجهه نفسه. وكنّا تشابـهنا حتّى إنّنا بتنا طيفين لجسد واحد. وكنت إذا لـمست جسدها كأنّما جسدي ألـمَسُ. كأنّني كنتُ وحدي بـها، أفضي إلـيـها كما لو أفضي إلـيّ. كانت ماتت فينا الرغبة التي جمعتنا طويلًا. ماتت من كثرة ما احتدمت، من فرط ما ضاق بـها جسدانا اللّذان لـم يكتـملا، ماتت من شدة ما استحالت، من شدّة ما ارتفعت بنا وسقطت، بنا سقطت، من شدّة ما توهّمناها، ما توهّمتنا. وكنّا كلّما أُغدِقت علينا وفاحت بنا وجدنا أنفسنا فـي منتـهى الصبابة نتحرّق شوقًا إلى الزائد من الاحتراق. وكنّا ننهضُ على خواءٍ، على خيبةٍ عميقة، نلتـمس وحدتنا، ذكرى احتراقنا الذي لـم يكن. كانت رغبتنا تنتـهي فـي رغبة أشدَّ وأعمقَ، فـي رغبة تظلّ كالـهواء، تـملؤنا ولا تأسرنا، تـملؤنا ولا نأسرها...
ولـم نكن نتـمالك أنْ نتحابَّ كلٌّ وحده كما فـي مرآة. أقفُ حيال عينيـها وقوفـي حيالَ عينيّ. عاريًا عريـها، حائرًا حيرتَها، سئمًا سأمَها. وكانت بدورها تخجل أمام ناظريّ. تخفِضُ عينيـها خفرًا وكأنّما اقترفتْ إثمًا ما. وكنتُ أرنو إلـيـها بـهدوء تغرق فـي جسدها، تتوحّد بـه، تخفقُ وتضطرب. وكانت يـحلو فـي عينيـها أن أرى إلـيـها، إلى عريـها، وأن ترى إلـيّ أرى إلـيـها عاريةً، مضطجعةً فـي عريـها، تلامسُ جسدَها لتكونه وحدَها، وحدها حيال ناظريّ. وما إن تستعر شهوتـها حتّى تتـمرّغَ فـي مسارّتـها، يُغشى علـيـها مختلجة متنوّمة محتلـمة بجسدها، فـي الضوء، فـي الضوء الشاحب لعزلتنا، لانفصالنا وعجزنا.
وكانت حين ترقد أيضًا بعريـها تتفتّحُ ندوبـها كالأكمام. آنذاك ينبثق الدم مخضّبًا بياضها ووجهي. وكنت إذا لـمستُ وجهي ألفيتُه باردًا خالـيًا من أيّ جرح. كان الدم ذاك يبرق كالسراب منبثقًا من جرح لا مرئيّ فـي جسدها، فـي روحها الـمجروحة.
هكذا كان علـيـها أنْ تترك وراءها ضوءًا واحدًا، ضوءًا ما برح يغسل عينيّ كلّما فتحتـهما على غيابـها، على ذكراها. كان علـيـها أن تحفظ انتظارنا وموتنا وعزلتنا الشديدة. عجزتْ عن الـموت عجزها عن الحياة لكنْ لـم ترحل إلاّ نحو نهار آخر، نحو سأم آخر.
هكذا كان علـينا أن نُنهي حياتنا، أنْ ندمّر حياتنا التي أضحت كالأنقاض، أنْ ندمّر دمارنا. لـم نلتقِ لقاءنا الأخير إلاّ لننهي معًا ماضيًا لـم يطُلْ كثيرًا، ماضيًا لـم نعد نذكره كثيرًا. لـم نلتقِ إلاّ لننسى كلّ ما يـحيطُ بنا، كلٌّ ما فعلناه من قبل ولـم نعد نذكره. لكنّنا عجزنا، ربّما خوفًا، ربّما... وكما أنّنا لـم نعرف كيف نحيا، لـم نعرف كيف نموت. لأنّ موتنا الذي لـم نمتـه ما كان لـيكون ختامًا لحياة

رفضناها وكرهناها. كان ذاك الموتُ ليشرق كالهاوية، كالهاوية الأخيرة. ربّما لم نجرؤ على إنهاء حياتنا لشدّة ما خالجتنا فكرة الموت وآختنا ونمت فينا وتجذّرت كشجرة. كأنّ الموت ولد فينا منذ أن أبصرنا ضوء العالم وظلمته. كنّا أنهينا حياتنا من غير أنْ نموت. كنّا رسمنا نهاية لها في عيوننا وجسدَيْنا الوحيدَين اللذَين تضاءلا حتّى أمسيا كطيفين. ما كنّا لنموت إلّا لنؤاخي العالم الذي عجزنا عن أنْ نؤاخيه في حياتنا، العالم الذي بدا مستحيلًا كلقائنا، لقائنا الذي لم ينتهِ كما رجونا أن ينتهي.
كنّا نَضَجَ فينا الموتُ ونَضَجْنا في عتمته وهيّأنا جسدينا كوليمة أخيرة. إخترنا أنْ نموت معًا كما انتهينا معًا وسئمنا سأمنا العميق. إخترنا أنْ نموتَ كمن

يموت أمام المرآة. كمن يموت وظلَّه. كنّا التقينا لننهي معًا كلّ ما جمع بيننا، ما فصل بيننا. لم نلتقِ لنبدأ، لننتهي التقينا. لنمسحَ جروحنا ونُلغي سأمَنا، عجزَنا عن استمرارنا معًا، عن استمرارنا كلٌّ وحدَه. كنّا ندرك ألمنا الذي يواجهنا والنهاية التي تنتظرُنا لكنّنا لمْ، لمْ نقدم. ربّما سَهَوْنا عن نهايتنا، سَهَوَنا عن حياتنا نفسها، تلك التي لم تكن إلاّ وهمًا لحياة لم نحيها. وعوضَ أنْ يحفزنا الخواءُ، منتهى الخواءِ الذي غرقنا فيه، على اختيار نهايتنا دفع بنا إلى خواءٍ مختلف، ينبثق منّا ويحاصرنا كالنهار، كاللّيل. لم نمتْ ربّما من كثرة ما هيّأنا موتنا، ومن كثرة ما انتظرناه أصبح هو انتظارَنا وأصبحنا نحن موتنا.
كانت نهايتُنا المرجوّة خالجتنا طويلًا وكنّا آنذاك لمسنا استحالة بقائنا، استحالة وجودنا. كأنّنا لم نكنْ، كأنّنا من المستحيل كان علينا أنْ نكون. خارجَ الحياة داخلَ الموت كنّا أمسينا خائبين ومدمّرين لا نملكُ إلاَ رغبةً واحدة: رغبة الانتهاء. أنْ نموتَ ليموتَ العالمُ في موتنا، العالمُ الذي عجزنا عن احتماله، عن احتمالنا فيه.
تُرى هل كان عليَّ أن أدثُر صورتها في ذاكرتي أم أنْ تقتل صورتي في ذاكرتها كي نُقدِم كلانا على موتٍ متبادل، على موت أردناه ولم نحقّقه؟ تُرى هل كانت الآخر فيّ أمْ كنتُ الآخر فيها لنشرعَ معًا في إنهاء حياتنا، حياتنا التي لم تكن؟ إنْ كنتُ لأنهي نفسي فإنّما لأنهي الآخر فيّ لا لأنهي نفسي. كذلك كانت لتفعل هي. لكنّنا لم نُقدم كلانا. شبقُ الموت المتأصّل فينا كان أقوى من الموت، من بروده، من إثمه. وغريزةُ الموت التي تفتّحت في جسدينا كانت أعنفَ من الموت، من الخوفِ الذي يثيره عادةً لدى الاقتراب منه. أصبحَ الموتُ في لحظةٍ ما حالًا من الحلم من فرط ما غلونا في خوضه، في الالتحام به. آنذاك لم يعدْ من جدوى للموت، كما لم يعد من جدوى للحياة. مضينا في رغبتنا الأليمة في الانتظار، في البقاء هكذا، هكذا من دون عزاء.
ما كانَ آلمَ تلك الليلة، ليلة موتِنا الذي لم يتمّ. ما كان آلم ذاك الصباحَ، صباح غيابها الذي أشرق على عتمة عينيّ، على ظلالها التي تركتْها وراءها. في تلك الليلة أخذنا أرقٌ عميق فما هجعنا إلاّ قليلًا، ليلتنا الأخيرة كانت تلك، ليلتَنا الأولى. لم نحسّ لحظة أنّنا في وطأة الفراق. لم نحسّ أنّنا سنغادر عالمنا القليل، زرقةَ بحرِه وضوءَ قمره وبياض صباحه. لم نحسّ أنّنا سننفصل جسدًا عن جسد، جسدًا عن روح. كنّا في كآبتنا حتى إنّنا لم نأبه لاحتدامها في الساعات الأخيرة. كنّا تجاوزنا الكآبة إلى حالٍ من الاكتئاب السحيق الذي لا يحتاج إلى ما يبرّره، إلى حالٍ من الجوى المشوب بالوجد، إلى حال غامضة عَرَتْ جسدينا وأحبطتهما. ورحنا نتصبّب عرقًا حتى

تبلّلت الـملاءاتُ بنا. عرقًا عرقنا، عرقًا رشحت بـه حواسّنا فـي الحرّ الدبق للّيل، فـي الخفوت التامّ للّيل الذي يـحاصرنا.
فـي تلك اللّيلة كان على أوقاتنا القصيرة التي قضيناها داخل العالم، خارج العالـم، أنْ تجتاز ذاكرتنا كشريطٍ أسودَ وأبيضَ. كان علـينا أنْ نتذكّر من غير أنْ نتذكّر بوضوح. حضرت ذكرياتنا فجأة وانطفأت فـي لحظات خاطفة. كأنّنا تبادلنا فـي صمتنا الأليـف كلامًا لـم نقلـه طوال لقائنا. كأنّنا قلنا فـي نظرات خفرة ومنكسرة كلّ ما لـم نجرؤ على قولـه.
فـي الصباح ذاك سبقتني إلى الصباح، إلى صباحها الـمنقشع. تركت وراءها ضوءًا، ضوءًا مسّ عينيّ وأيقظني من نوم كالغيبوبة. فـي الصباح أدركتُ ما لـم أدركه سابقًا. فقدتُ ما أدركتـه طوال اللـيل، طوال النوام الذي استرقني استراقًا. صباحًا كئيبًا كان. صباحًا متجهّمًا كروحي، روحي التي تناثرت فوق بقاياي.
كانت كآبتـها كبيرة وكان علـيـها أن ترحل، أن ترحل إلى نهارها. كان حزنـي كبيرًا وكان علـيّ أن أبقى، فـي ذكراها، فـي ذكراي، فـي ذكرى ما لـم يكن بيننا من فرط ما كان. أكتب الآن موتنا الذي لـم نجرؤ علـيـه، أكتب غيابـها، غيابـها الذي يضيـء عتـمةَ الكلام. أكتُبـها الآن. يسيلُ جسدُها كالحبر على الأبيض أمامي، على الأبيض الذي فـي عينيّ. الآن يردُّ غيابها إلى الكلـمات ما فقدت الكلـماتُ من دفـءٍ، من شغفٍ، من رغبات. الآن جسدُها يشعل حواسَّ الكتابة. أكتبـها الآن. الكلـمات تحيا جسدها، تنتشي نشوة حواسّه، تـموتُ موتـها. أكتبُها لأكونها، لتكونها الكتابةُ، لتأسُرَ أرجَ جلدها، نسمةَ عرائها. أكتُب عريـها الآن لتجلوَ اللغةُ بـه، بنصاعِه، بصفائه. أكتبُ الآن جسدَها لأصونَ الكتابة نفسها، لأحفظ اللغة من الخرابِ الذي حلّ علـينا كالليل، الحالكِ الليل.
أراها الآن غائمة فـي عينيّ، نقيّة كدمعة، رقيقةً كغمامة. حاضرة فـيّ، لا أراها، أحسّها، أحسّ جسدها، أنفاسُها تـهبّ كالنسيم. أراها مرآي لظلّي، ظلّي الغائب. أستيقظ الآن منها كما مِنْ حُلُم حلـمني. كأنّني حلـمُها بي. كأنّني لـمْ أكنْ إلاّ لأنّـها كانت، وهمي وضوءَ عينيّ، عتـمتـهما. الآنَ أصبحتْ طيفًا فـي عينيّ، فـي ذاكرتي. أراها كما لو أمسُّها مسَّ من فَقَدَ بصرَه فجأةً.
لـمْ أعدْ أذكرُ وجهها، كأنّـها بلا وجهٍ كانت. لـم أعدْ أذكرُ جسدَها، كأنّـها بلا جسدٍ كانت. دخلتْ عتـمة عينيـها، فـي عتـمتـهما غابتْ فـي عتـمتـهما التي آثرتْها طويلًا وهجعتْ فـيـها. غابت كما لو لـم تكن يومًا، كما لو لـم تكنْ فـي يوم من أيامنا التي كانت.
صامتًا، لا أسمعُ إلاّ أصواتًا باهتة، أصواتًا تـهبّ من لـيلـي، من لـيل العالـم. الأوراق أمامي سوداءُ تـمامًا. أمامي أيضًا فسحةٌ زرقاءُ لا آبـه كثيرًا لـها. وحدي لا أنتظر أحدًا. أحدّق فـي نقطة غائبة، ساهمًا عمّا يـحيطُ بي، عمّا يـحلّ علـيّ، عمّا أراه ولا أراه.
ينطفـىء وجهُها الآن، وجهها الذي لـم أعد أذكره. فـي الزرقةِ ينطفـىءُ، فـي

الضوءِ الخافت. تنطفـىء عيناي يملؤهما أبيض الأوراق أمامي، الأبيض، الأبيضُ الحالكُ أمامي.
وحدي الآن، أدرك أنّني وحدي. لا أذكر ما حدث بالتـمام. لا أذكر إلاّ أنّني أكتب، أكتبُ كي لا أموت، كي أموتَ الـموتَ الذي لـم نمتْه معًا. وحدي أمامَ أوراقي، أوراقي مبلّلة بمائها، بزرقتـها، برائحتـها التي يـهفّ بـها وجهي ويداي.
أكتبُ لأدرك غيابـها، لأدركَ أنَّ الكتابة عاجزة عن أسرها. لأدركَ أنَّ الكتابة لا تكون إلاّ فـي لحظة غيابـها، فـي لحظة احتراقها، كالرغبة التي تظلّ رغبةً فـي رغبةٍ غائبة أبدًا.